

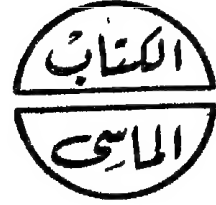


تأنيخ ما أضمّله التأنيخ

# تحت سماء المغرب

بقلم  
حيب جامالي





# تحت سماء المغرب

تاريخ ما أهمله التاريخ  
بقلم : جيبّ جاماتي

## إهداء

الى المجاهدين الأحياء في بلدان المغرب العربي ، لكي  
يلذكروا المجاهدين الأموات ، الذين حرروا الأوطان الصغيرة في  
هذا الجزء من الوطن الكبير ، وصانوا كرامتها ، ودفعوا عنها  
الأذى ، وأخلصوا لها في السراء والضراء ، وكانوا نبلاء  
شرفاء في حياتهم الخاصة والعامة ، أهدى هذه المجموعة من  
أقاصيص البطولة والفداء ، والحب والوفاء ، المستقاة من  
هوامش التاريخ قديمه وحديثه .

## تصدير

عن « الدار القومية للطباعة والنشر » صدرت حتى الآن عشر حلقات من « تاريخ ما أهمله التاريخ » وهذه هي الحلقة الحادية عشرة أقسمها للقارىء بعنوان : « تحت سماء المغرب » لأنها تضم مجموعة من الأقاليم التي وقعت حوادثها في البلاد العربية الغربية : المغرب الأقصى أو مراكش ، والجزائر ، وتونس - أو القطر المغربى والقطر الجزائرى والقطر التونسى - كما كان يحلو للعرب أن يسموا تلك الجهات التي التحقت بامبراطوريتهم المتراصة الاطراف .

ففى هذا الكتاب اذن عشرون قصة وقعت حوادثها فى المغرب العربى ، وفى حقبات مختلفة من التاريخ القديم والحديث ، أى قبل الميلاد وبعده ، وقبل الفتح الإسلامى وبعده ،

وتاريخ المغرب العربى عريق مجيد ، ولشعوبه مواقف مشرفة على كثر الاجيال ، فى جميع الميادين والمجالات . وفى هذه الأقاليم التي يضمها كتاب « تحت سماء المغرب » بين دفتيه ، حوادث مما أهمله التاريخ ، فى عهود تغبد فى خلالها الحكام وتطورت الشعوب . فقديمنا « عرف الشمال الافريقى غزو جماعات جائرة من الشرق برا أو من الشمال بحرا » . وتركمت كل جماعة منها فى البلاد التي غزتها آثرا من حضارتها ، أو رواسب من ثقافتها ، حتى جاء الفتح الإسلامى العربى ، فصهرت كل الحضارات فى بوتقة حضارته وأفرغت كل الثقافات فى قالب ثقافته . وحدث فى تلك البقاع ذلك الامتزاج العجيب الذى لم يذكر التاريخ مثيلا له فى صفحاته ، الا انهما يتعلق بالعرب الغزاة الفاتحين ، وبالنسبة الى الشعوب التي دخلت فى طاعتهم ، أو

انضمت اليهم بدون حرب ولا قتال ، فما مرت الايام والأعوام ،  
حتى كان كل عنصر غريب قد ذاب في العنصر العربي ، وحتى  
كانت البلدان المغربية كلها قد اكتسبت ذلك الوجه العربي  
الواضح الناصح، الذي عرفت به فيما بعد وحتى أيامنا هذه،  
والذي بقي محتفظا بروقه ، وخصائصه ، وخواصه ، وميزاته ،  
وحيوته ، بالرغم مما تعاقب على الشمال الافريقي من كوارث  
ومحن وتقلبات ، على ايدى حكام ضالين من ابنائه ، او ظفاة  
مستبدين من الأغراب المستعمرين ٠٠٠

واليوم ، وقد دفرخت اعلام الحرية وخلفت رايات الاستقلال  
في فضاء الشمال الافريقي ، وهو ما درج العرب المشاركة  
والمغاربة على تسميته بالمغرب العربي - لأنه يقابل من الناحية  
الافريقية المشرق العربي الممتد في الناحية الآسيوية -  
فان الشعوب التي تحررت ونبلت الحصول والاستكانة ،  
وانطلقت في ميادين الرقي والمعرفة تصول وتجول ، فان  
الحديث عن التاريخ ومادونه من وقائع الماضي البعيد والقريب،  
يشير في النفس الشجون ، ويحيى في الصدر الآمال ، ويقوى  
عزائم العاملين في سبيل حاضر جدير بذلك الماضي ،  
بومستقبل افضل من الحاضر والماضي .

وبصور هذه الحلقة من الاضيء « تاريخ ما أهمله  
التاريخ » بعنوان : « تحت سماء المغرب » تكون الدار القومية  
للطباعة والنشر قد أصدرت احدى عشرة حلقة هي كالتى :

الحلقة الاولى : بطولات عربية

الحلقة الثانية : الناصر صلاح الدين

الحلقة الثالثة : مصر مقبرة الفاتحين

الحلقة الرابعة : اندلس العرب

الحلقة الخامسة : الجنة في ظلال السيوف

الحلقة السادسة : مصر الاقدمين

الحلقة السابعة : بين جدران القصور

الحلقة الثامنة : على ضفاف النيل

الحلقة التاسعة : قياصرة وسلاطين

الحلقة العاشرة : غبار المعارك

وأمل أن تجد هذه المجموعة الجديدة قبولا حسنا لدى  
القارىء ، مثل سابقتها ، والله ولى التوفيق \*

حبيب جاماتى

## قهرس

الموضوع	الصفحة
اهـداء .. .. .	٣
تصدير .. .. .	٥
زيتونة على قبر .. .. .	٩
الموت أو العار .. .. .	١٧
القمران .. .. .	٢٧
قبر الرومية .. .. .	٣٥
ابن القمر .. .. .	٤٥
ثورة على روما .. .. .	٥٣
قديس وحورية .. .. .	٦٣
صهريج القيروان .. .. .	٧١
غادة الدير .. .. .	٨٩
معركة الملوك الثلاثة .. .. .	٩٩
القميص الأشهب .. .. .	١٠٩
مرتنا سلطنة المغرب .. .. .	١١٩
نفيسة الجزائرية .. .. .	١٢٩
توكرت غادة الوادي .. .. .	١٣٩
قبة سيدي الشيخ .. .. .	١٤٧
البطل الضريح .. .. .	١٥٧
يمينة أميرة الصحراء .. .. .	١٦٧
عائشة المغربية .. .. .	١٧٥
رسالة وامرأة .. .. .	١٨٥
م ١٣ - تحت سماء المغرب	١٩٣



## زيتونى على قبر

... وانتشرت زراعة الزيتون  
وسميت البلاد بسببه « تونس  
الخضر » \*



على الشرفة الفسيحة ، المظلة على الميناء ، جلس « أزوداس » كبير الكهنة في هياكل « صور » وحوله أفراد أسرته جميعاً : ابنته الكبيرة وزوجها ، وابنته الصغيرة التي لم تتخذ لها بعلاً بعد ، وأخوه وإولاد أخيه ... أما زوجة الكاهن فقد ماتت يوم رأت ابنتها الصغيرة النور .

وكان الناظر إلى الميناء من مكان مرتفع - مثل شرفة الدار التي يقيم فيها أزوداس وأسرته - يدرك لأول وهلة أن أسطولاً من السفن المعدة للرحلات الطويلة على أهبة الإبحار إلى بعيد ، للاتصال بإحدى المستعمرات الفينيقية المنتشرة على سواحل البحار ، أو لإنشاء مستعمرة جديدة في مجاهل الأرض .

وكان أزوداس ، من ناحيته ، قد أعد العدة للإبحار على ظهر إحدى سفن الأسطول ، مع ابنته الصغيرة « أسماتا » تلبية لدعوتين : دعوة الكهنة في هياكل « قرطاجة » الموجهة إليه ، ودعوة القائد « براجليون » خطيب ابنته ، الموجهة إلى الفتاة ...

ولم يكن في وسع الاثنين أن يرفضا الدعوتين : فكبير كهنة « صور » كان الرئيس الأعلى للكهنة جميعاً في الهياكل التي شيدها الفينيقيون في مستعمراتهم الجديدة قرطاجة على ساحل أفريقية الشسمالي . وإذا كانوا يلحون عليه بالذهاب إليهم ، فما ذلك إلا لأنهم في حاجة ماسة إلى إرشاداته ونصائحه وثاقب أفكاره . أما هي ، الفتاة أسماتا ، فأنها قد رضيت مختارة بأن تربط حياتها بحياة ذلك القائد الشاب براجليون ، الذي ارتقى بسرعة مذهشة مدارج الشهرة والمجد ، في الحروب التي خاض غمارها . وإذا كان يلح عليها بأن توافيه إلى قرطاجة ، فما ذلك إلا لأنه مضطر إلى البقاء هناك ، حيث تدعوه المصلحة : مصلحته ومصلحة الوطن ...

كانت « اليسار » ملكة صور قد أبحرت مع أسطول لجب هاربة من فينيقية على أثر مأساة عائلية دموية ، في القرن التاسع قبل الميلاد ، فتبعها عدد كبير من الأعوان والانصار ، ونزلت ساحل البحر المتوسط ، على مسافة بعيدة من الموانئ المصرية والليبية .

واعترفت اليسار - التي يسميها اليونانيون « ديدون » - أن تنشئ في ذلك الموضع مستعمرة جديدة ، ونفذت عزمها بلا إبطاء فنبئت من الأرض ، على الرمال وبين الصخور ، مدينة أطلقت عليها الملكة الشريفة اسم « قارت هداش » وهما كلمتان فينيقيتان معناهما « المدينة الجديدة »

وتداولت الألسنة هذا الاسم من بلد إلى بلد جيلا بعد جيل ، فأصبح « قرطاجة » وهي المدينة التي قدر لها أن تهز الامبراطورية الرومانية هزا وتزعزع أركانها وتدفع بها في وقت من الأوقات إلى حافة الهاوية ، بعبادة هانيبال وأسرته . ولكن الرومانيين تمكنوا في النهاية من تخريبها .

قامت المدينة العظيمة اذن على ذلك الساحل الافريقي ، وامتدت فيها الشوارع وانتظمت الدور والقصور ، وانتقلت إلى قرطاجة عبادة آلهة فينيقية : بعل ، وملكات ، وعشترات ، وأدونيس . وانتقلت مع طقوس العبادة تقاليد الفينيقيين وعاداتهم وأساليبهم في الحروب والغزوات والتجارة والصناعة والزراعة . وبعد أن زالت أسباب الجفاء الأولى بين مؤسسي قرطاجة والوطن الذي جاءوا منه ، توثقت الروابط بين المدينة الزاهرة وقواعد الفينيقيين على سواحل لبنان في شرق البحر المتوسط .

وكان القرطاجيون ، الذين انصرفوا على الخصوص إلى الأعمال والفنون الحربية يعتمدون على الوطن الأول في كل ما يتعلق بالشئون المدنية والتجارية ...

ومما كانوا يستوردون من فينيقية بكميات كبيرة ، زيت الزيتون ، الذي كانوا يحتاجون إليه لجيوشهم وهياكلهم في آن واحد للقتال وللعبادة .

ولما أعد الكاهن الأكبر أزوداس نفسه للرحيل من صور إلى قرطاجة كان عليه أن يسهر ، في خلال رحلته ، على شحنه هائلة من زيت الزيتون أعلنت خصيصا في معاصر لبنان لتموين قرطاجة ومصانعها وهياكلها .

ولكن شيئا آخر كان يشغل في آن واحد بال الكاهن ويحمله على التفكير : كان أزوداس شديد الاهتمام باتخاذ الحيلة لنفسه ، لكي يتمكن من المحافظة على العادة القديمة التي توارثها أفراد أسرته أبا عن جد ، منذ أن وقفوا انفسهم لخدمة الآلهة في المعابد . وتلك العادة أصبحت من التقاليد المقدسة لم يشذ عنها أحد من الكهنة الذين خرجوا من تلك الأسرة العريقة ..



سفينه من السفن اللينيقية التى جابت البحار

قال ازوداس :

— هذه آخر مرة يلتئم فيها شملنا فى مجلس واحد ، أيها الاعزاء ،  
قيل ان نفترق — وقد يكون الفراق أبديا لا لقاء بعده — غدا ، عند الفجر ،  
سنبحر من هذا الميناء الى قرطاجة ، انا وامساتا • وقد زودتكم بوصاياى  
فأرجو ان تكونوا عليها اثناء • واذكركم مرة أخرى بما أوصيتكم به بالحاح  
فيما يتعلق بأغراس الزيتون •

وهنا قال أخو ازوداس :

— أرسلت بنفسى ، أيها الأخ الحبيب عشرة أغراس من أجود أنواع  
الزيتون الى ظهر السفينة التى تقلك غدا ، وسأوافيك فى المستقبل بغيرها ،  
كلما أقلعت سفينة الى قرطاجة •

فأجاب ازوداس مرتاحا :

— أشكرك يا أخى : فأنا حريص على أن تزرع شجرة زيتون على  
قبرى ، كيلا يختلف هذا القبر فى شئ عن قبور من سبقونى الى العالم

الآخر . من أفراد أسرنا الكهنة . فقد غرست زيتونة على قبر كل منهم ، بحيث أصبحوا الآن ينامون نومهم الأخير في غابة من الزيتون في ظاهر هذه المدينة ، وخلف أسوار صيغون ، وفي سفح الجبل عند مصب نهر أدونيس ، بجوار بيبيلوس ! وشجر الزيتون لا يتبث في حقول قرطاجة وسهولها . ولهذا ، أردت أن أحتاط للمستقبل ، وأن آخذ معي من أغراس الزيتون ما يجعله في متناول اليد ، يوم أرحل عن هذا العالم فأجد غرسا منها يزرع على قبري ، عملا بما درجنا عليه من قديم الزمان .  
الزمان .

وبعد سكوت قصير قال أزوداس :

– لست أدري كيف أن اخواننا هناك لم يفكروا بعد في سد هذه الثغرة في ثروتهم الزراعية ، ولم يعملوا الى زراعة أشجار الزيتون في بلادهم ، لاستخراج زيتها ، واستخدام أعوادها وأوراقها ، كما نفعل . فأنهم يعتمدون علينا في تموينهم بالزيت والزيتون ، ولا ينعنون قط بزراعة الشجرة الجميلة التي تغطي سفوح جبالنا وسهولنا .

وقالت اسماتا :

– أبى . . . قبل أن تزرع غرس الزيتون على قبرك بعد عمر طويل مديد ، سأزوع واحدا منها ، يبنى هذه ، في حديقة الدار التي ستقيم فيها ، يوم تحتفلون هناك ، بزفافي . . . وسيكون غرس الزيتون هذا تاريخا لزواجنا ، براجليون وأنا !

ورافق الجميع على هذه الرغبة التي أبدتها الفتاة ، وقضوا وقتهم في تلك الليلة المقمرة في تبادل الاحاديث ، حول عميدهم الكاهن الأكبر لتوديعه قبل الرحيل الذي قد لا يلتقون بعده .

قوبل أزوداس في قرطاجة بمظاهر التكريم والتعظيم ، واستبشر الناس خيرا بقدومه ، بالنظر الى ما كان يتمتع به من شهرة واسعة وسمعة طيبة ، والى الخلافات المستحكمة بين كهنة الهياكل في قرطاجة ، والتي لم يكن هناك بد من ازالتها ، حفظا لكرامة الآلهة وصيانة لطقوس العبادة .

وقوبلت اسماتا ، الفتاة الجميلة اللطيفة ، بمظاهر الترحيب والفرح ، من حبيبها القائد الشاب براجليون . الذي كان على أهبة

السفر مع الجيش القرطاجي في حرب جديدة ، والى غزوة توسع شقة  
الممتلكات القرطاجية باضافة رقعة من الارض اليها .

وفي بضعة أيام فقط ، تمكن ازوداس الحكيم الحليم من اعادة  
الوثام الى هياكل الآلهة ، وازالة اسباب الحصار من نفوس الكهنة  
فتنفس الناس الصعداء ولهجت السننهم بالثناء على رسول السلام الذي  
أوفدته اليهم « صور » الفينيقية .

وأقام القرطاجيون عرسا لابنة الكاهن لم تشهد مدينتهم مثله من  
قبل . فقد اشترك فيه السكان جميعا : الكهنة اكراما لكبيرهم ازوداس  
والجنود اكراما للقائد براجليون ، والشعب لانه مرح دائم الرغبة في  
اغتنام الفرص ليرقص ويفنى ويأكل ويشرب على حساب الاغنياء بين  
حرب وضعت أوزارها ، وحرب لم تبدأ بعد !

وبعد زفاف أسماتا الى القائد براجليون نفدت الفتاة ما قرره في  
ميناء صور ، يوم التأم شمل الاسرة على شرفة الدار ، فزرعت غرس  
زيتونة صغيرة في حديقة بيتها الجديد ، أمام الباب . ابقاء لذكرى اليوم  
الذي ربطت فيه حياتها بحياة الرجل الذي اختارها زوجة واختارته  
زوجا .

ولم تكن أسماتا تعلم ، وهي تفرس الزيتون ، أنها تغازل الموت  
وتدعوه لزيارة الدار .

فقد ذهب براجليون الى الحرب بعد زواجه ببضعة أيام .

ولم يعد من الحرب !

فقد هبت عاصفة هوجاء على السفن التي نقلت تلك الحملة  
القرطاجية الى جزيرة « مالطة » وكانت في ذلك العهد ملكا للفينيقيين .  
وكان على الحملة أن تنطلق من تلك الجزيرة الى القارة الاوربية شمالا .

ولكن الاقدار شاءت غير هذا ، فحالت العاصفة دون استمرار الحملة  
في طريقها واغرقت منها ثلاث سفن - منها السفينة التي كان يقودها  
براجليون .

غرق القائد ولكن رجاله تمكنوا من انتشال جثته من اليم . فحملوها  
الى قرطاج حيث دفنت في احتفال عسكري مهيب .

وأرادت عروس الميت التي حل بها المصائب القاسي ولم تنعم بحبها

ان يدفن زوجها فى حديقة الدار ، امام الباب ، بجوار الزيتون  
الصغيرة التى غرستها بيدها يوم زفافها ! •

وكان لها ما أرادت •

وبعد ان وارى الجنود قائلهم التراب • ألقت اسماءا بنفسها على  
الضريح واستسلمت للبكاء والنحيب •

وبين يدي أبيها الكاهن الاعظم ، الذى حملها الى داخل الدار وقلبه  
الحزين يكاد يتفجر فى صدره ، تمتعت العروس الارملة قائلة :

– أبى ••• جئنا بأغراس الزيتون لكى نؤمن زرعها على قبور  
الاسرة ••• وما كنا نظن ان أول قبر نزرعها عليه سيعظم سمادتى  
وهنائى !

غير ان حزن الفينيقية المستاء كانت له نهاية – فلكل حزن نهاية ،  
حتى لو كان حزن العروس المحبوبة على عريسها المحبوب •

كانت اسماءا فى حوالى العشرين من العمر لما تزوجت وترملت فى  
شهر واحد •

ولما بلغت الثلاثين ، كانت زوجة لابن عمها ، الذى وافاها من  
صور ، وأما لأطفال أصحاء أقوياء •

ومات أبوها الكاهن الأعظم أزوداس ، فدفن فى الحديقة أيضا ،  
بجوار القائد براجليون ، وغرست اسماءا على قبره شجرة زيتون أخرى  
عملا بتقاليد الاسرة !

وكانت أغراس الزيتون التى جاء بها الكاهن معه ، والتى أرسلت  
اليه فيما بعد من فينيقية ، قد وزعت على الحدائق والبساتين والمزارع ،  
فى قرطاجة وحولها ، فانتشرت زراعة الزيتون منذ ذلك الوقت فى تلك  
البقعة من الارض الافريقية •• واسم تلك البقعة اليوم «تونس» •

وبفضلها استحققت هذه البلاد الجبيلة الاسم الذى لازمها منذ  
أجيال ، بعد أن دالت دولة القرطاجيين ، وتتابع الغزاة والفاطحون جيلا  
بعد جيل : « تونس الحضراء ! » •

# الموت في أوطار

تناولت الملكة السم من  
يد حبيبها وتجرعته تجنباً  
للعار • ولكنها أخلت عل  
الحبيب عهداً بأن ينقله وطنه  
من الحكم الأجنبي ••  
فانقلب الخائن وطناً متطرفاً  
بفضل الحب ! ••







مرت « سوفونسيه » على هذه الأرض مرور الشهب المارقة في الفضاء . وتناولها المنجل قبل الأوان سنبله لم يحن بعد وقت حصدها .  
قمائت في ريعان الشباب ، ولكن بعد أن دونت اسمها في سجل التاريخ بأحرف من دم ونار ...

كان «هانيبال» بطلا عظيما بين الأبطال العظماء . ألقت اليه «قرطاجة» مقاليد أمورها فتنازل أعداؤها الرومانيين وقهرهم في الميادين وطاردتهم في مختلف الاقطار والامصار ، بجيشه المظفر ، مطاردة الثعالب لبغات الطيور، وأوشك أن يستولى على عاصمة ملكهم لو لم يداخله الغرور شأن العظيم تدله الاقدار وتعالى في تدليله !

وكان لهانيبال أخ يدعى «أسدر بعل» أصلى الرومانيين أيضا ، هن بعد أخيه ، حربا حامية ، وسار في الطريق الذي سار فيه أخوه العظيم من قبل ...

وسوفونسيه ، موضوع هذه القصة ، ابنة أسدر بعل ، رأت النور عام ٢٢٥ قبل الميلاد ، ونشأت في كنف أبيها الذي لقنها مبادئ الوطنية الصحيحة والاخلاص للعشيرة والتفاني في سبيل قرطاجة وسيادتها ومجدها .

بلغت الرابعة عشرة من العمر فأحبها الضابط القرطاجي «ماسينيسا» وكان جميلا مقداما . فقابلت الفتاة حبه بمثله وتعاهد العاشقان على الزواج .

لكن الظروف حالت دون اتساق رغبتهم وتحقيق أملهما ، لان الرومانيين اكتسحوا افريقية الشمالية وزحفوا على قرطاجة طافرين . فعقد العظماء والقواد مجلسا برئاسة أسدر بعل لاتخاذ التدابير اللازمة أمام الخطر الداهم .

واستقر رأيهم على التحالف مع « صفاقس » ملك مورتانيا ، وهو النجار الوحيد في افريقية القادر على الوقوف في وجه الغزاة وفي طريق جيشهم الزاحف ...

عرضوا عليه المحالفة وبسطوا له آراهم ، فقبل الرجل أن يحالفه  
ويضع يده في أيديهم لصد الغزاة الفاتحين ، ولكنه وضع لذلك شـمـه  
واحدا ، وهو اعطاؤه الاميرة الفاتنة سوفونسيه زوجة له ٠٠٠  
كان صفاقس شيخا مسنا ، فجعلت الفتاة تنتحب وتندب حظها  
لكن والدها اقنعها بقبول الشيخ زوجها لها ، قائلا ان سلامة الوطن ثم  
يدها ٠

وتغلب حب الوطن في قلب الفتاة على عاطفة الغرام ٠ فكاشف  
خطيبها بالامر ٠ وصدمة بالحقيقة المرة ٠ ولكنها اقسست له انها احيته  
وتحبه ، وسوف تظل على حبها ولن تحب سواه ٠٠٠ غير ان الواجد  
المقدس ، الواجب نحو الوطن ٠٠٠ نحو قرطاجة المهدة ٠٠٠ يحتم عليه  
أن تضحي بحبها ٠

غضب ماسينيوسا وحقد على بنى وطنه الذين سلبوه السعادة والهناء  
في الحب ٠ وبعد أن قضى الامر وزفت الاميرة الجميلة الشابة الى الملك  
صفاقس الشيخ ، هجر الضابط العاشق قرطاجة ، وتاه بعض الوقت حائر  
لا يستقر على رأى ، ثم انضم الى أعداء وطنه ، وحارب في صفوف  
الرومانين !

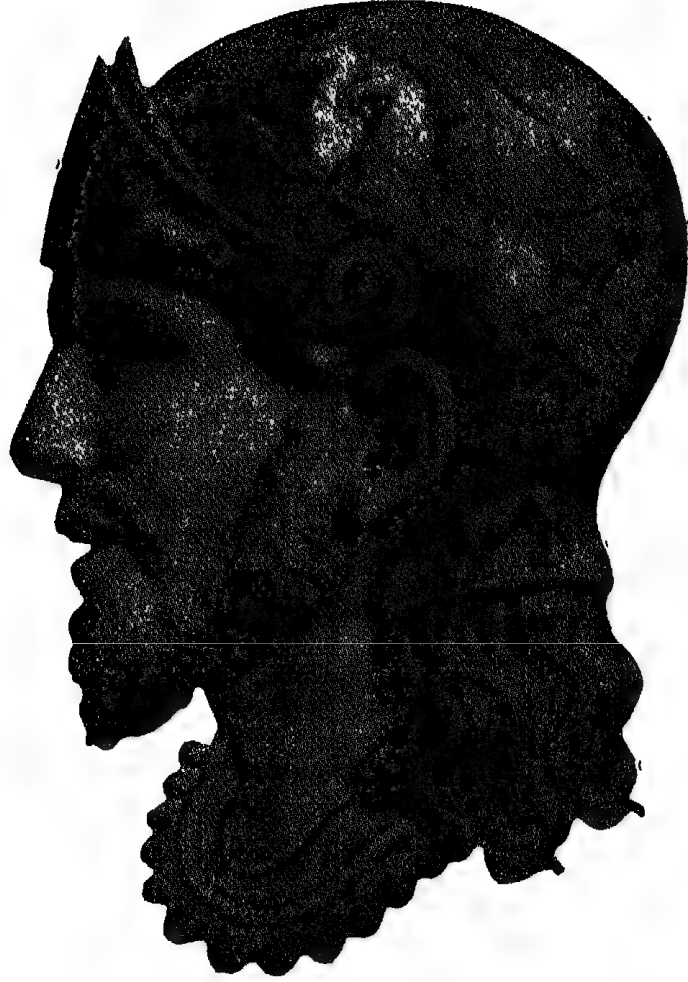
فلئن القائد الروماني الى الفوائد التي يمكن ان يجنيها جيشه من وجـو  
لكلـك الثائر الناقم في صفوفه ٠ فعهد اليه بقيادة الفرقة الزاحفة على مديـر  
«سيرتا» ومعقل خصمه في الحب ، الملك صفاقس !

وكان الملك قد جمع جموعه وحشد جيشا لجبا سير جزءا منه لشـسا  
أزر القرطاجيين ، واعتصم هو مع الجزء الثاني ، وهو مؤلف من خير  
جنوده ، في عاصمته المنيعـة ٠ وأقامت زوجته سوفونسيه بجانبه ، تشجـع  
المقاتلين وتواسى الجرحى ٠

مشى القائد الروماني العام - سيبيو الشهير بالافريقي - بجيشا  
الى قرطاجة وتقدم ماسينيوسا الى سيرتا فخرج صفاقس للقاء خصمه .  
ونشب القتال بين الفريقين ، فغلب الملك الشيخ على أمره ، وانهزم فر  
الميدان ، فتراجع الى داخل الاسوار ليحتمى بها ٠٠٠

وضرـب ماسينيوسا الحصار على المدينة من جميع جهاتها ٠

وتسرب الرهن الى قلب الملك ، وتولاه اليأس ، وأخبر زوجته ان  
ماسينيوسا حبيبها بالامس مقبل للانتقام منه ٠ وطلب اليها أن تنجو



ماسينيسا  
ملك تونيديا وموريتانيا

بنفسها وتهرب من المدينة وتعود الى قرطاجنة ، حيث أبوها وأمهها وعشيرتها ...

لكن الملكة رفضت بإباء ماعرضه عليه زوجها ، قائلة ان واجبها انما هو فى البقاء مكانها بين الجنود البواسل للدفاع الى النهاية .

وخان الملكة قلبها فى أثناء الحديث ، وباحت شسفتها بكلمات لم تستطع حبسها ، فأدرك الزوج التعس أن الفتاة الجميلة التى استولى عليها ثمنا لمحالفته ، لاتزال على حبها القديم باقية ، وعلى عهدهما السابق مقيمة بعد أن أصبحت امرأة وزوجة ..

فتولاه الغيظ واقسم أمامها أنه خارج للقاء ماسينيسا ثانية ، وجها لوجه فاما أن يعود اليها حاملا على كفه رأس حبيبها ، واما أن يموت كريما فى ساحة الشرف ، فيترك الزوج رأسه بين يدى العشيق !

وخرج صفاقس من المدينة مع فريق من الحامية . ودارت رحى القتال من جديد بين العدوين تحت أسوار سيرتا ..

واستبسل الملك الشيخ ولكنه غلب على امره مرة أخرى ، ودخل ماسينيسا المدينة فاتحا ، وانتشرت فيها اشاعة مصرع الملك فى حومة الوغى ...

وكان من عادات ذلك العهد أن يساق أهل المدينة المكتسحة أسرى فى الاغلال يرسفون . وأن يقتسم الفائزون اولئك الاسرى ، فيجعلون من الرجال عبيدا ومن النساء سبايا ومحظيات ...

وهذا ما اعتزم الرومانيون أن يصنعوه بعد استيلائهم على سيرتا ...

دخل القائد المنتصر على خطيبته بالامس . فانطلقت سؤوفونسبه تؤنبه على خيائته وانضمامه الى الاعداء ومحاربته ابناء وطنه تشفيا وانتقاما . ومما قالته له :

ما ذنب قرطلجة لكى تسيء اليها ؟ اذا كان واحد من القرطاجيين قد أساء اليك ؟ وما ذنب وطنك لكى تؤذيه ، وتذله ، اذا كان بعض مواطنيك قد آذوك أو آذوك ؟

وانفجر ماسينيسا وراح يعاتب بدوره :

— لم أقدم على شيء مما فعلت الا حبا بك ! .. لم أدخل سيرتا للاستيلاء على المدينة فحسب ، بل لاسترجاع الحبيبة والانتقام من الرجل

الذى اغتصبها منى ... والحبيبة أنت يا سوفونسيه ... واقسم لك الآن ، بعد أن بلغت مرادى اننى على استعداد للتكفير عما فرط منى ومحو ذلك الماضى .. قولى كلمة ، وسأعلن من الآن انتقاضى على الرومانيين ، قولى كلمة ... قسولى انك ترضين بى زوجا لك ، فيتغير كل شىء ... ولن يساق اهل المدينة أسرى الى روما ، بل يطلق سراحهم ، ويعطون سلاحا لمواصلة الحرب ... الحرب ضد روما !

كان الرومانيون قد أعلنوا أن ماسينيسا سيصبح ملكا على مورتانيا بعد أن يتم له الاستيلاء على سيرتا ، وأنهم يهبونه أيضا مملكة نوميديا المجاورة لمورتانيا . فلمسا عرض خطته على سوفونسيه ، كان الضابط الخائف اذن يخاطبها بوصفه الملك الذى حل محل زوجها على العرش !

فكرت الملكة فى الامر - وهى التى تزوجت بالرغم منها ، والتى بقيت على الوفاء لحبها الاول - فراقها ما عرضه عليها القائد المنصور ، ظنا منها أنها بذلك ستنقذ شعبها من الاسر ، وتكسب ماسينيسا من جديد لوطنها قرطاجة .

وما فكرت سوفونسيه فى القبول ، الا بعد أن اعتقدت ان الملك الشبيخ قد لقى حتفه ... فما الفائدة من البقاء على اخلاصها لزوج مات وانقضى أمره !

واتفق الاثنان ماسينيسا وسوفونسيه على وضع القائد الرومانى أمام الامر الواقع ...

وصل سيبيو الى سيرتا . فافضى اليه ماسينيسا بما تم بينه وبين الملكة . وقال ان شعب سيرتا ومورتانيا ونوميديا انما هو شعبه ، لانه يبيع بالملك مرتين: الاولى من الرومانيين أنفسهم قبل دخول سيرتا وتنفيذا للمعاهدة بينه وبينهم ، والثانية من الملكة نفسها التى رضيت به زوجا بعد مصرع صفاقس !

ثم يحفل سيبيو بما قاله ماسينيسا . بل فاه أمامه بعبارات تنم عن احتقار ممزوج بالتهديد ، وتهديد ممزوج بالاحتقار . وقال انه هو القائد العام الذى يمثل روما وارادتها ، وانه صاحب السلطان المطلق فى كل أرض يفتحها الجيش باسم روما ...

وقرر سيبيو اقامة عرض فى المدينة احتفالا بالنصر ، وأن يسير الجيش فى العرض ومعه الاسرى . وطلب من ماسينيسا أن يتخلى عن الملكة

لكى تساق ذليلة مكبلة بالسلاسل ، أمام الجيش ، مع غيرها من السبايا . . .  
شق الامر على ماسينيسا ، وأراد أن يحول دون ذلك وأن يدفع عن  
حبيبته العار والذل . فحاول أن يثير الحامية لدى تعلن تمردها على سيبيو  
القائد العام وعلى روما . . . لكنه فشل . . .

ودب اليأس الى قلب العاشق الحائر .

وفى تلك الاثناء ، دوى فى المدينة خبر كان له فى القصر الملكى وقع  
الصاعقة ، وفى قلب الملكة المسكينة فعل النصل الحاد . . .

أن صفاقس لم يمت ! فقد أصيب فقط بجرح عميق . فحمله جنوده  
وأخفوه عن أعين الاعداء وأسعفوه بالعلاج . . .

وهو الآن فى داخل الاسوار . . .

بل هو الآن فى طريقه الى القصر . . .

بل هاهو ذا صفاقس يدخل القصر . . . فيأذن له القائد الرومانى بأن  
يختل بزوجته . . .

قصت عليه سوفونسيه كل ما حدث ولم تحاول أن تخفى عنه شيئا  
من التفاصيل : انها لا تزال تحب ماسينيسا وترغب فى اتخاذه زوجها لها .  
وتريد أن تنقذ قرطاجة بفضيل ذلك الزواج لانه يعيد الخائن الى حظيرة  
الوطنية والصواب .

وغضب صفاقس . . . وشتتم وهدد . . . ولكنه وجد نفسه مخذولا  
ضعيفا أمام امرأة عولت على الاصفاء لصوت قلبها فقط . فرماها بالخيانة  
والجبن .

وأسرع الى سيبيو يطلب منه اقصاءه عن بلاد كان فيها السيد المطاع ،  
فأصبح الآن وقد ضاع ملكه بسبب امرأة . . . ووقع فى الاسر ، وفقد كل  
شيء . . . وأوشك أن يفقد الشرف . . .

وتحرك ضمير المرأة فها لها ما أقدمت عليه !

أصبح زوجها الاول أسيرا لدى الاعداء ، بعد انهيار عرشه وهو  
عرشها وانهزم جيشه وهو جيشها ، وأصبح زوجها الثانى تعسا مغضوبا  
عليه ، بعد أن خان وطنه بسببها ، وشرع فى خيانة روما التى اقترفت  
خيانتته السابقة من أجلها . . .

وبلادها ٠٠٠ قرطاجة وموريتانيا ، أصبحت تحت رحمة الغزاة  
الفاتحين ، يتحكمون فيها ويأمرون وينهون ٠٠٠

وأصبحت هي في حيرة وشقاء ، تتقاذفها المخاوف وتكتنفها الويلات ،  
بعد أن أصيبت في حبها ، وفي زواجها وفي وطنيتها !  
ودعت ماسينيسا وقالت له :

— لن أرضى بالظهور بين الأسرى أمام الرومانيين ٠٠٠ بل أؤثر الموت  
ألف مرة على العار مرة ٠٠٠

وتحرك ضمير العاشق كما تحرك ضمير العاشقة ٠٠٠ فبكى  
ماسينيسا ٠٠٠ واستطردت الملكة تقول :

— انت الوحيد الذي أحبيته في هذا العالم . فاستمع الى مشيئتي  
الآخيرة : أريد أن أموت ٠٠٠ فأطلب منك أن تعطيني سما يودي بحياتي  
بدون ألم ٠٠ ثم أرغب إليك في شيء آخر ٠٠٠ وهو أن تنتقم لوطنك  
وتنار لي أنا من الأعداء ٠٠٠ لقد خنت قرطاجة بسبب حبي ٠٠٠ وحاربت  
أبناء قومك لكي تنزعني من بين أيديهم ٠٠٠ فانتفض الآن على الرومانيين  
كما انتفضت من قبل على القرطاجيين ٠٠ عليك أن تخونهم من أجل حبي  
وتنتزع هذه البلاد من أيديهم تكفيرا عن ذنوبك الماضية ٠٠٠ فإذا فعلت  
ذلك رضيت عنك روحي في عالم الخلد ! ٠٠ أفعل أنت ؟

فاحتضن الحبيب حبيبته ، وغمر جبينها بالقبلات ، وتمتم قائلا :

— انني لفاعل ما تريدن !

— أقسم بالهتنا وآلهة أجدادنا ؟ ٠٠ أقسم بأرواح أولئك الآباء  
والأجداد ؟ ٠٠ أمام بعل وملكارث وعشتروت وجميع آلهة فينيقيا العظام .  
آلهة البلد الذي جاء منه أجدادنا وآباؤنا ٠٠٠

فبسط ماسينيسا يده وأقسم :

— أقسم أمام الآلهة ، بأرواح الآباء ورفات الأجساد أن  
ياسوفونسيه وانتقم لقرطاجة وسيرتا ، وأحارب الرومانيين  
التي حاربت بها معهم ٠٠٠

وعملًا بأرادتها الآخرة ، جاءها بالسم الذي طلبته

وسأله سوفونسيه :

— ما اسم هذا السم أيها الحبيب !  
 — اسمه « شوكران » ... تجرعه سقراط فمات بين أنصاره  
 ومريديه ميتة هنيئة هادئة ...  
 فتناولته الملكة من يد الحبيب ...  
 وسرى السم في عروقها ، وخارت قواها شيئا فشيئا ... وجعلت  
 تلفظ كلماتها الأخيرة مع أنفاسها ...  
 « وداعا أيها السماء الزرقاء ، سماء بلادتي الجميلة ... وداعا أيها  
 الوطن المحبوب ... أغادرك ذليلة مهانة ، ولكنني آمل لك النهوض من  
 كبواتك ، وأرجو لك السعادة على يد حبيب أقسم لي أن يعيد اليك مجدك  
 وحريتك ... وداعا أيها الأصدقاء ... لا تذكروا بسوء امرأة أحببتكم  
 جميعا ، وما فعلت ما فعلته إلا حبا بكم وبوطنكم ...  
 ... ساعدوا اليكم بروحي ... وأطوف على أبوابكم ، متنقلة من  
 القصر الضاحق الى الكوخ الصغير ، مستفسرة عنكم ، طالبة لكم الهناء الذي  
 لم أتمتع به في حياتي ! ... أرسلوا من بيتكم من يحمل خبر وفاتي الى  
 والدي الحزين المسكين ، في قرطاجة ، حيث يحاصره الأعداء وتساوره  
 الشجون ... وقلوا له أن ابنته سوفونسيه ماتت في سبيل قرطاجة ،  
 وانها تطلب اليه أن يموت أيضا في سبيلها اذا تعذرت عليه الحياة عزيزا  
 حرا مكرما في وطن مكرم حر عزيز ... قولوا له ان روحي ستعرف  
 عليه في ظلام هذه الليالي ، وانها ستفرح لفرحه وتشقى لشقائه ...  
 قولوا له انني كنت زوجة صالحة ، ومواطنة مخلصة وانني حملت اسمه  
 طاهرا نقيا ... قولوا لنساء قرطاجة : لقد ماتت سوفونسيه في سبيل  
 الوطن ، فعل كل امرأة أن تفعل مثلها اذا لزم الامر !  
 ... جاءت اليمامة ... اليمامة المرسلة من لدن الالهة ... جاءت  
 لتحمل على جناحيها روح سوفونسيه ابنة أسدربل ... فالوداع ...  
 وصعدت روح سوفونسيه في الفضاء محمولة على أجنحة اليمام ...  
 وكانت في الثالثة والعشرين من العمر . وكان ماسينيوس في  
 الخامسة والعشرين ...



# القمران



عاشتنا معا ...

وماتنا معا ...

ودفنتنا معا ...



شرشل ، سيزاريا ، قيصرية ٠٠٠ ثلاثة أسماء لمسمى واحد . غير  
أن الاسم الاول هو الذى تعرف به الآن تلك المدينة الرومانية القديمة الواقعة  
على شاطئ « الجزائر » الشمالى .

اطلق عليها جوبا الثانى ملك موريثانيا اسم « يوليا سيزاريا »  
تخليدا لذكرى القائد الفاتح الرومانى يوليوس قيصر . ولا تزال آثار  
الهياكل والقصور والقلاع التى شيدها ذلك الملك فى « قيصرية » عاصمة  
ملكه باقية الى الآن فى المدينة التى يعرفها الجزائريون باسم « شرشل » .



كليوباترة

بموتها انتهى حكم البطالسة فى مصر  
وبدا فى المغرب

مات جوبا الثانى ملك موريثانيا فى  
العام الثانى عشر بعد الميلاد ، وخلف  
وراه ذكرى طيبة واسما عطرا  
ومؤسسات عديدة ومؤلفات باللغة  
اليونانية قيمة مفيدة .

وكانت زوجته « كليوباترة سيلانه »  
أو الاميرة « قمر » قد سبقته الى العالم  
الآخر .

وفى اليوم الذى انتقلت فيه  
كليوباترة سيلانه الى دنيا الارواح ،  
رحلت ايضا عن هذه الأرض وصيقتها  
المحبوبة «لونا» أو بعبارة أخرى «قمر» .

فمن هو جوبا الثانى ومن هما  
« القمران » اللذان غابا من الأنظار  
قبل ان يصبحا بدرين كاملين ؟ .

ماتت كليوباترة الكبيرة ملكة مصر منتحرة على أثر موت عشيقها  
ماركوس الطونيوس ، تاركة ابناء من آباء مختلفين بينهم ثلاثة هم ثمرة  
غرامها الجنونى الذى جر عليها وعلى عشيقها الرومانى المصائب والويلات

وهؤلاء الاطفال الثلاثة هم : الكسندر هليوس أو اسكندر الشمس ،  
وكليوباترة سيلانة أى كليوباترة القمر - وفيلادلف .

أفل نجم انطونيوس وفشل ذلك القائد العاشق فى ميدان السياسة  
والحرب ، وانهزم فى الميادين شر هزيمة . ولم يستطع ثباتا أمام  
اوكتافىوس شقيق الزوجة التى طلقها انطونيوس وسقاها كأس الهوان  
حتى الثمالة حبا بكليوباترة ووعبة منه فى التمرغ بين ذراعى تلك الملكة  
الفاتنة الساحرة .

قطع أنطونيوس حبل حياته بيده بعد أن يئس من النصر .

وجاء احد رجال كليوباترة المخلصين الى الملكة التمسعة بحية سامية  
فى سلة مملوءة تينا . فماتت تلك الميتة التى خلعت فى التاريخ اسم  
الطية للمرة الثانية - منذ عهد حواء ! .

وفى العام التاسع والعشرين قبل الميلاد عاد اوكتافىوس الى روما  
سائقا أمامه الاسرى والسبائا ، وبينهم أبناء كليوباترة من عشاقها  
الكثيرين . وفى مقبضهم أبناء عدوه من الملكة الراحلة .

كان التويمان - هليوس وسيلانة - فى العاشرة من العمر ، وكان  
فيلادلف اصغر منهما سنا .

عهد اوكتافىوس الى اخته اوكتافيا زوجة انطونيوس المطلقة  
المهانة ، فى تربية أبناء زوجها من عشيقته تربية رومانية خالصة ،  
بحيث تستطيع روما فى مستقبل الايام أن تستخدمهم لقضاء مآربها  
وتحقيق أغراضها .

ولكن الكسندر هليوس وفيلادلف ماتا قبل ان يبلغا الرشد .  
وبقيت كليوباترة سيلانة على قيد الحياة .

وعندما وضعت روما تاج الامبراطورية على رأس اوكتافىوس  
ونادت به امبراطورا على الغرب والشرق باسم «أوغسطس» ، جعل الرجل  
يفكر فى انشاء دولة جديدة تخضع لتاج قيصر ويجلس على عرشها ملك  
وملكة ممن غذتهم روما بلبنها وعجنتهم بيدها .

وكان يقيم فى روما فى ذلك الوقت الامير جوبا الافريقى ابن جوبا  
الأول ملك نوميديا . وكان «يوليوس قيصر» قد هزم أباه واجتاح وطنه  
وضمه الى ممتلكات روما الشاسعة .

نشأ الامير جوبا في روما نشأة لاتينية أنسته أصله ومصائب أبيه،  
فأصبح أطوع لقيصر من بنائه . وعندما بلغ أشده أقامه أوغسطس ملكا  
على « مورتانيا » الافريقية باسم «جوبا الثاني» .  
وأطلق الملك الجديد على عاصمة ملكه اسم « سيزاريا » أو  
« قيصرية » .

وفكر الامبراطور في اعطائه زوجة تكون مثله مشبعة بروح روما  
وثقافتها . فوقع اختياره على كليوباترة سيلانة ابنة الملكة المصرية  
المشهورة ، والحلقة الوحيدة الباقية من سلالة انطونيوس فأصبحت  
ابنة كليوباترة ملكة مثل أمها ! .  
وقال قيصر لربييته وهو يودعها يوم رحيلها عن روما الى عاصمة  
ملكها :

– لقد كان اسم « هليوس – الشمس » شؤما على أخيك اسكندر  
فلعل اسم سيلانة – القمر » يجلب لك يا ابنتي الخير والسعادة والهناء ! .  
وانصرف جوبا الى ادارة شئون مملكته بلباقة ومقدرة . فازدهرت  
مورتانيا في عهده وعاش شعبه في رخاء واطمئنان . وتمكن ذلك الملك  
الناطقة من التوفيق بين ارضاء بلاده وارضاء روما في آن واحد .

أما كليوباترة سيلانة فانها لم تكن على وفاق مع ذلك الزوج الذي  
كان يهمل الملكة ولا يعطيها من وقته اكثر مما تسمح له بذلك شئون  
الملكمة . ولم تكن تلك الشئون لتسمح له بالاهتمام بزوجته والقيام  
تجاهها بواجبه كله .

وكانت كليوباترة سيلانة تعد نفسها أشرف محتدا من ذلك الزوج  
وألقى دما منه . أليست أمها كليوباترة ؟ أليس والدها ماركوس  
انطونيوس ؟ أليست الدعاء التي تجرى في عروقتها مزيجا من الدم  
الروماني النبيل والدم اليوناني النبيل أيضا ؟ فمن يكون جوبا الافريقي  
المورتاني بالنسبة اليها ؟ .

وامرأة هذه عقليتها وهذا اعتقادها في نفسها لا يمكن أن تجعل  
زوجها سعيدا في حياته وتضمن له الهناء . وإذا أضفنا الى ذلك أن  
الزوج نفسه كان في شغل شاغل عن زوجته ، منصرفا الى معالجة شئون  
مملكته ورعاية الادب والعلم وتشبيد الهياكل ، والقصور وتأسيس  
المعاهد وخدمة الفنون ، أدركنا أن كلا الزوجين الملكيين كان يعيش غريبا

عن الآخر ، مبتدئا على نفسه فقط . غير باحث عند رفيق حياته على  
معونة أو عطف أو حب ! •

وكانت الملكة سيلانة تتمتع بحقوق خاصة بها ، أقرتها روما  
وأرغمت الملك جوبا الثانى على اقرارها أيضا ، بحجة أن سيلانة رومانية  
أصيلة فى حين أن زوجها غريب عن روما تبناه الامبراطور فاكتسب  
القومية الرومانية اكتسابا • وتلك الحقوق التى كانت كليوباترة سيلانة  
تتمتع بها كانت تجعلها قادرة على طبع صورتها على النقود الموريتانية وعلى  
جدران الهياكل والقصور ، واصدار أمرها الى رجال الحرس والجيش ،  
ومناخضة سلطة الملك اذا خطر ببالها أن تفعل •

وكثيرا ما كان يخطر ذلك ببال كليوباترة سيلانة !

\*\*\*

— تعالى يالونا تعالى فأننى أشعر الليلة بضيق فى صدرى ويخيل  
الى أننى مسرعة بخطى واسعة نحو القبر !

القت « لونا » بنفسها على قدمى سيدتها وقالت بصوت حنون ينم  
على حب وإخلاص :

— بددى أفكارك السوداء يامولاتى فسوف تعيشين طويلا • انك  
جميلة قوية والمستقبل يضحك لك ويناديك !

— كلا يا لونا ! • لقد شاءت الآلهة أن تغرب « شمس » أخى  
هليوس قبل الأوان ، وسوف يغيب « قمر » سيلانة قبل الأوان أيضا !

قالت الملكة الشابة هذا وبكت ••

وتساقطت دموعها على يدى وصيفتها «لونا» فبكت الجارية لبكاء  
سيدتها •

وامتزجت دموع «القمرين» وسيلانه ولونا فى سكون ذلك الليل ،  
فى قصر جوبا الثانى المشرف على البحر بمدينة قيصرية •

— لونا •• لقد اطلقوا عليك هذا الاسم لانك ولدت فى الليلة التى  
ولدت فيها أنا ! سمونى بلغة أمى اليونانية « سيلانة » وسموك بلغة  
عشيق أمى انطونيوس الرومانى «لونا» والاسمان لسمى واحد • هو  
القمر الذى يضىء الليالى السوداء • ولكن القمر اليونانى سوف يغيب  
قبل أن يصير بدرا • فلن يتحقق دعاء أوغسطس قيصر ! وأرجو ياأختى  
أن يبقى القمر الرومانى متألثا فى الفضاء وأن تعيشى طويلا يا لونا !

فقبلت لونا قدمى مولاتها وقالت والزفرات تخنقها :

— لن أنسى يا سيدتى أن أبى المصرى هو ذلك الرجل الذى خضع  
لارادة أمك الملكة العظيمة ، وحمل اليها فى قصرها بالإسكندرية الحياة  
السامة فى سلة التين • لقد مات أبى أيتها الملكة بعد أن أفضى الى برغبته  
الاخيرة : وهى أن ألحق بك حيث تذهبين ، وإن آكون لك خادمة مطيعة  
كما كان بائع التين خادما مطيعا لأمك ، وإن ارحل عن هذا العالم فى  
اليوم الذى نرحل فيه عنه سيلانه ويغيب قمرها عن الانتظار !

— اذن سوف نلحق بأبى وأخوى فى العالم الآخر متمناقين ،  
فيلتقى القمران هناك بكليوباترة ربة السحر والجمال وابنها هليوس  
الشمس المشرقة !

وفى اليوم التالى ، ارتفعت فى قصر الملك أصوات النساء ومزق  
عويلهن الفضاى وحمل الرسل الى الملك جوبا الثانى خبر وفاة زوجته  
كليوباترة سيلانة •

ترك الملك مجلسه • وأسرع الى حجرة الملكة ، فاذا به أمام جثة  
هامدة •

بل امام جنتين هامدتين !

جثة زوجته وقد خرجت روحها من بين شفثيها ، تاوكة عليهما  
ابتسامة حلوة •

وجثة الوصيغة لونا وقد بات وجهها حالك السواد من أثر السم  
الزعاف الذى تجرعتة •

وقف جوبا الثانى أمام الجثتين مطرق الرأس صامتا • ثم التفت الى  
نساء القصر ورجال الحاشية وقال :

— لتدفن الملكة فى حديقة القصر ، وليعلن الحداد عليها اربعين  
يوما •

ثم تقدم من جثة زوجته وتناول يدها بيده وقال :

— لم نذق لذة الحياة معا ايتها الحبيبة ولم ننعم بالسعادة والهناء فى  
هذا العالم ، فلتسهر عليك الآلهة فى الآخرة ، وأعدك الآن بأننى سأتعهد  
بعنايتى ولدنا « بطليموس » وابنتنا « دروزيلا » راجيا أن يكونا فى  
هذه الحياة اوفر منا حظا وسعادة وهناء !

وهم الملك بالخروج من قاعة الموت فارتفع صوت سائلا :

— ولونا ؟ لونا الوصيصة الامينة ، اين تدفنها ؟

فاجاب الملك :

— لتدفن بجوار سيدتها • فقد كان القمر للقمر ونيا !

وفي حديقة القصر رقد القمران : كليوباترة سيلانة ، ابنة  
كليوباترة ملكة مصر من عسيها الروماني ماركوس انطونيوس وزوجة  
الملك جوبا الثاني • والوصيصة «لونا» ابنة البائع المصري الذي حمل الى  
كليوباترة العظيمة الحية السامة في سلة التين !





## قبر الرومية

ما أكثر الأماكن الأثرية التي  
تحمل أسماء لا تنطبق على  
المسمى : ومن هذه الأماكن  
« قبر الرومية » في الجزائر.



لم يتردد « بطليموس » ملك موريثانيا ، لحظة واحدة في السماح بالمثل بين يديه ، للمرأة المصرية التي وقفت بباب القصر في صباح ذلك اليوم ، قائلة انها قادمة من روما لمقابلة الملك والافضاء اليه بأمر خاص به دون سواء .

ان لمصر في نفس بطليموس مكانة خاصة . فهي مسقط رأس أمه، ومقر عرش تبوأه أجداده نحو ثلاثة قرون ، حتى جاء الرومان فأزالوه من الوجود . . .

دخلت المرأة . فإذا هي غادة بارعة الجمال ، في نهاية العقد الثالث من العمر ترتدى ثوبا هو مزيج من الطرازين المصرى والاغريقى ، كما كان شائعا في عهد البطالسة في الاسكندرية . . .

رحب بها الملك ، وقال لها انها تحل في ضيافته منذ تلك الساعة وسألها ما الذى حملها على هجر وطنها ، ولماذا جاءت الى عاصمته « يوليا سيزاريا » وهل هي وحدها ، أم في صحبة رفاق من بنى قومها ؟

وبصوت عذب ، وعبارات تتخللها العبرات ، قصت المرأة قصتها على بطليموس . . .

انها وحدها لا يصحبها أحد في رحلتها . . . بل انها وحيدة في العيالة لا تمت الى أحد بنسب . . . مات أبوها المصرى وهي في سن الرضاعة . فعنيت بتربيتها أمها « انطونيا » ابنة « سيسترا » الوصيصة فى بلاط الملكة كليوباترة ، وهي أيضا تحمل هذا الاسم ، اسم جدتها « سيسترا » . ولما شعرت الأم بأن ساعتها الاخيرة قد دنت ، أرادت أن تطمئن على مستقبل الصبية ، فاختارت لها من بين أصدقاء الأسرة زوجا صالحا ، وسلمتها ما كانت تدخره من مال ، وتملكه من تحف وحلى . ثم تناولت كيسا مصنوعا من جلد الغزال ، وأخذت منه خمارا ناصع البياض ، ووضعت بين يدي ابنتها قائلة لها : « ان هذا الخمار يا ابنتى من مخلفات الملكة كليوباترة التي ماتت كما تعلمين من لدغة حية سامة لما بلغها خبر انتحار الرومانى ماركوس انطونيوس . وهو هدية منه الى كليوباترة .

صنع من أدق خيوط القطن المصرى . وقد سحرت كليوباترة بيدها غزالة  
بيضاء كانت أليفة ، تروح وتجيء فى الفصر ، وصنعت من جلدها هذا  
الكيس لتحفظ فيه خمار الحبيب العزيز... ولما تبعثرت محتويات القصر  
الملكى ، بعد وفاة كليوباترة وأنطونيوس ، ودخول الرومان الى البلاد  
فاتحين منتصرين ، وهرب الخدم والوصيفات ، عثرت أمى سيسترا -  
جدتك يا ابنتى - على الكيس الثمين ملفى تحت النافذة التى كانت الملكة  
تجلس أمامها فى صباح كل يوم ... فأخذته ، واحتفظت به ... وآل  
الى بعد موتها ... واننى أضعه الآن وديعة بين يديك ، فحافظى عليه ،  
وعلى الخمار الذى يضمه فى طياته ... وإذا قدر لك أن تلتقى ، فى  
مستقبل الأيام ، بأحد من أبناء الملكة أو أحفادها ، فسلميه هذه الأمانة ،  
فولتكن المكافأة أن يذكرنى ويذكر أمى سيسترا بالخير ...

وماتت الأم مرتاحة البال ... ولكن الابنة لم تنعم بالطمأنينة  
والسعادة من بعدها ... فقد مات زوجها أيضا ، بعد أمها بسنتين ،  
وبقيت وحيدة لا سند لها ولا معين ... فاعتزمت الرحيل عن مصر ،  
والتحقت بخدمة قائد روماني كوصيفة لزوجته ، وأبحرت معها من  
الاسكندرية الى روما ... ومن هناك قررت المجيء الى « يوليا سيزاريا »  
عاصمة موريثانيا مدفوعة بالرغبة فى لقاء الملك الجالس على عرشها ،  
« بطليموس » ، ابن الملك « جوبا » من زوجته « كليوباترة سيلانة » ابنة  
كليوباترة ملكة مصر ، من ماركوس أنطونيوس الروماني .

أصغى بطليموس الى رواية المرأة المصرية صامتا ، تتماوج على وجهه  
لأنفعالات النفسية التى اختلج بها صدره لسماع تلك التفاصيل المثيرة ،  
ولما سكنت سيسترا ، سألها بلهفة :

- والخمار يا سيسترا ؟

وكان المرأة كانت تنتظر منه هذا السؤال . فقد مدت يدها الى  
صدرها ، وانتزعت الكيس الابيض من طيات ثوبها ، وأخرجت منه الخمار  
الناصح ونشرته أمام أنظار الملك قائلة :

- الأمانة بين يديك يا حفيد كليوباترة !

فنهض بطليموس من مكانه ، وضم أصابعه على ذلك الأثر العائلي  
الغيس ، وغمره بالقبيلات والدموع ، ثم التفت الى سيسترا قائلا :

- سأجعل من هذا الخمار الذى كان أزارا لجديتى ، كفنا لأمى !



يوليوس قيصر

سميت باسمه مدينة يوليا سيزاريا  
بالجزائر - وهي اليوم شرشل

في سنة ٣٠ قبل الميلاد ، بعد زوال عرش البطالسة في مصر ،  
بموت آخر ملكاتهم ، نقل الرومان الى عاصمتهم أبناء كليوباترة من أزواجه  
العديدين . . . .

وفي روما ، نشأت « كليوباترة سيلانة » أي كليوباترة « القمر »  
ابنة ملكة مصر من ماركوس انطونيوس ، وترعرعت تحت أنظار الرومان ،  
وفي رعاية « أوكتافيا » الزوجة التي هجرها انطونيوس من أجل عدوه  
اللدود « أوكتافيوس » الذي خلا له الجو في روما بعد أن تخلص من  
مزاحميه ، فتبرأ العرش باسم « الامبراطور أوغسطس قيصر » . وقضى  
على النظام الجمهوري في روما ، عاصمة الدنيا وسيدتها في ذلك الوقت .

وأراد قيصر أن تكون كليوباترة سيلانة زوجة الملك موريثانيا «جوبا»  
الثاني « التابع للرومان ، فكان له ما أراد . . . .

وفي مدينة « يول » المستعمرة الفينيقية القديمة ، التي جعلها جوبا

عاصمة ملكه ، وسماها ، « يوليا سيزاريا » نسبة الى القائد الروماني الأشهر يوليوس قيصر ، شيد العريس الافريقي لعروسه الحستاء قصرا فى غرب البحر المتوسط ، حاول أن يجعله شبيها بالقصر الذى رأت فيه النور ، وعاشت فيه أمها على شاطئه الاسكندرية ، فى شرق ذلك البحر .

لكن الحياة الزوجية لم تكن مصحوبة بالسعادة والهناء ، بالنسبة الى الزوجين ، بل كان الخلاف بينهما متواصلا دائما ، على جميع الشئون الخاصة والعامة . غير انهما كانا يتظاهران بأنهما على وفاق تام ، تجنباً لتدخل الرومان بينهما ، وما قد يجره ذلك عليهما من متاعب . . . .

كانت سيلانة دائمة التفكير فى الموت ، تعتقد أن أيامها معدودة ، وأحيانا تتمنى من أعماق قلبها ، أن تنصرم تلك الايام وتريحها من حياة لم تكن لتحقيق لها ما كانت تصبو اليه من أمنيات وآمال .

طلبت ذات يوم من زوجها الملك أن يعد لأسرته ضريحا لائقا بها ، وأن يكون الضريح شبيها بالاهرام التى شيدها الفراعنة فى أرض مصر ، لتكون لهم المثوى الاخير . فأجابها جوبا الثانى الى رغبتها ، وأمر بأن يبنى هرم فى طاهر العاصمة ، وبدأ المهندسون والعمال ينفذون الامر الملكى ، وكانت الملكة نفسها تشرف على سير العمل . . . .

وماتت سيلانة قبل أن يتم تشييد الضريح . فدفنت فى حديقة القصر الملكى ، ودفنت معها وصيفة لحقت بها من مصر ، وكانت رفيقة صباها ، وتحمل اسما لاتينيا يشبه اسمها الاغريقى « لونا » ومعناها « القمر » .

ولما لحق بها زوجها الملك ، لم يكن الضريح قد أعد بعد ، فدفن جوبا بجوار زوجته سيلانة والوصيفة لونا . وكان الزوج قد بلغ السبعين من العمر . أما الزوجة فقد ماتت وهى دون الخمسين .

وخلف « بطليموس » أباه وأمه على عرش موريتانيا . وكان ذلك فى سنة ١٨ للميلاد وفى عهد تيبريوس قيصر ، ثانى أباطرة الرومان .

من رغبات كليوباترة سيلانة التى استجاب لها جوبا الثانى ، تسمية ابنها البكر « بطليموس » وهو الاسم الذى حملة جميع الملوك من أسرة « لاجوس » المقدونية فى مصر ، من سنة ٣٢٣ الى سنة ٣٠ قبل الميلاد . وهكذا بعد أن أفل نجم البطالسة فى المشرق ، ومر نحو نصف قرن على وفاة كليوباترة الكبيرة ، عاد النجم فلمح من جديد فى المغرب ، فى عهد سيلانة ملكة موريتانيا ، ثم فى عهد ابنها وخليفتها بطليموس .

أوصاه أبوه ، قبيل موته ، بأن يواصل العمل فى بناء الضريح ، لكى يدفنه فيه مع الملكة التى سبقته الى العالم الآخر . وعمل الابن بوصية الأب ، فأنجز البناء الذى جاء فخما رائع المنظر ، يشير الإعجاب بضخامته، ويخلب الألباب بأعمدته العديدة ونقوشه البديعة . وزاده جمالا على جمال غرس الاشجار على طول الطريق المؤدية اليه ، وكثرة الرياحين والازهار من حوله ، على سفح الهضبة التى اعتلى الضريح قمته .

وما ان انقضت سنتان على وفاة الملك جوبا الثانى ، حتى كان الضريح معدا للغرض الذى شيد من أجله . فقرر بطليموس أن ينقل اليه رفات أبيه وأمه ، فى مشهد يشترك فيه الشعب الموريتانى ، الذى أحبه الملك الراحل وأحبته الملكة ، فقابل حبهما بالولاء والوفاء .

فى ذلك الوقت ، وبينما كان الملك بطليموس يستعد لنقل الرفات الى المقر الاخير ، وصلت الى « يوليا سيزاريا » المرأة المصرية ، حاملة الى حفيد كليوباترة ، خمار جدته الابيض ، فى كيس أبيض مثله .

وتلك المصادفة العجيبة جعلت بطليموس الملك يقول لسيسترا ، وهو يغمر الأثر العائلى النفيس بالقبلات والدموع :

— سأجعل من هذا الخمار الذى كان ازارا لجدتي ، كفنا لأمى !

لم تشهد يوليا سيزاريا موكبا كذلك الذى خرج من باب سورها الكبير ، فى سنة ٢٠ بعد الميلاد ، وانساب فى السهل الممتد حول العاصمة، خلف نعشين وضعا على زحافتين تجرهما الجياد المطهمة ، فى طريق تكتنفه الاشجار من الجانبين ، متجها نحو الشرق ، حيث يرتفع « هرم جوبا » المعد ليكون مأوى للنعشين ، اللذين يضمّان جثمانى الملك والملكة .

مشى بطليموس ، الابن البار ، فى طليعة الموكب ، ومن حوله أفراد أسرته ورجال حاشيته ، وتبعه الكهنة يرتلون الاناشيد ، والسنادى يلوحن بالانغصان الخضراء ، وأفواج من الضاربين على القيثارة والنافخين فى الابواق والقارعين على الطبول ، وكبار القواد وعظماء المملكة ، ثم الشعب الخاشع رجلا ونساء وأطفالا ٠٠٠

وكان نعش الملكة ملفوفا بالخمار الابيض ، الذى جاءت به سيسترا المصرية من الاسكندرية ، بمثابة كفن يلزمه فى ظلمة القبر . ووضع النعشان فى المكان المعد لهما بين جدران الهرم .

وفى اليوم التالى ، أمر بطليموس بأن ينقل أيضا رفات الوصيعة

» لونا « من حديقة القصر ، ويدفن أيضا في قبر أعد له بجوار الضريح الملكي ...

أقامت سيسترا ابنة انطونيا وحفيدة وصيفة كليوباترة في قصر الملك بطليموس معززة مكرومة . وكانت كثيرة التردد على الضريح، حيث تجلس في عزلة عن الناس ، وتطلق لحيالها العنان ، وتذكر الماضي البعيد والقريب ، وتقارن بينه وبين حاضرها المغمم بالراحة والطمأنينة .

أراد الملك أن يختار لها زوجا من بين فرسان حرسه ، فرجته إلا يفعل ، قائلة ان بقاءها بالقرب منه ، وما تجده في القصر من عطف ورعاية، وما تشاهده من حب متبادل بين الملك وشعبه ، كل ذلك يغنيها عن السعي إلى ما عداه من أنواع السعادة ...

عشرون سنة قضتها سيسترا في بلاط الملك بطليموس ، وأخذت في خلالها نصيبها من السراء والضراء ، وحضرت الافراح والاتراح ، ولم يحدث قط ما يعكر صفو علاقاتها بصاحب العرش وأفراد أسرته .

سافرت إلى روما مع بطليموس وعادت معه إلى يوليا سيزاريا غير مرة ...

وفي إحدى تلك الرحلات - وكانت الأخيرة - هبت العاصفة التي أودت بحياة بطليموس وأطاحت بعرشه .

ففي سنة ٣٧ للميلاد ، جلس على عرش الامبراطورية الرومانية ، ثالث قياصرتها ، كاليكولا السفاح المجنون . فناصر ملك موريثانياا العداء ، بدون سبب مبرر . وحاول بطليموس عبثا أن يتفادى مغبة ذلك العداء ، ولكن مساعيه ومساعدى أصدقائه من عظماء الامبراطورية باء بالفشل . وفي سنة ٤٠ للميلاد ، أمر كاليكولا بقتله في مادية صاخبة . ودفنت جثته في مكان مجهول .

وعادت سيسترا مع رفاق الملك المقتول إلى عاصمة موريثانيا ، حيث ساد الاضطراب وانتشر الفزع ، وشعرت المرأة بأن حياتها قد انتهت بانتهاء حياة الملك الذي غمرها بعطفه وأحاطها بحمايته .

وفعل الرومان في موريثانيا ما فعلوه من قبل في مصر ، يوم جعلوا من البلاد اقليما من اقاليم امبراطوريتهم الشاسعة . وهربت الملكة أورايا زوجة بطليموس إلى الجبال واختفت .

وفي ذات يوم ، عثر الزائرون عند هرم جوبا ، على سيسترا المصرية



جثة هامة • فأشفقوا عليها بعد موتها ، وحفروا حفرة بجوار القبر ، وواروا فيها جثة المسكينة •

وظلت رياح الخوف تعصف بشعب موريتانيا أكثر من سنة ، ولم تهدأ الا بوفاة القيصر المجنون كاليكولا فى سنة ٤١ للميلاد •

وتعاقبت الأجيال ••• وتعاقب معها الغزاة والفاثون • جاء بعضهم من الخارج ، وأقبل بعضهم من الصحراء ، وفقدت يوليا سيزاريا مع الزمن مكانتها ، وتضاءلت أهميتها ، وتداعت قصورها وهياكلها ، وتساقطت أعمدتها ، وهجرها فريق من سكانها الى حيث يتوافر لهم الأمان والاطمئنان •

وفى القرن الهجرى الاول ، والقرن الميلادى السابع ، طوى العرب تحت جناح دولتهم الأيسر الساحل الافريقى من الشرق الى الغرب • ولما حلوا فى يوليا سيزاريا ، سموها « قيصرية » ثم تغير الاسم الى « شرشال » حتى استقر فى النهاية على ما هو فى أيامنا هذه : « شرشل » •

وأما موريتانيا ، فقد اختفى اسمها من الازهان ، وأصبحت مع الوقت اقليما من أقاليم « الجزائر » العربية •

فاذا خرجت من بلدة شرشل ، واتجهت الى الشرق ، أو خرجت من مدينة الجزائر واتجهت الى الغرب ، ثم جنحت قليلا الى الجنوب ، وسرت فى سهل «متيدجة» فانك تصل فى أحد أطرافه الى هضبة صغيرة يبلغ ارتفاعها نحو مائتين وستين مترا ، وترى فوق تلك الهضبة ، بناء قديما متهدما ، تختلط حجارتة بالأتربة ، ولا يزيد ارتفاعه على ثلاثين مترا ، وقطر دائرته على ثلاثة وستين مترا ، وحول قاعدته يمتد صف من الأعمدة يبلغ عددها الستين ، وله أربعة أبواب يواجه كل منها جهة من الجهات الأربع ، وفى داخله دهاليز خالية خاوية •

والبناء يحاكي فى شكله الاهرام المصرية •

ذلك هو هرم جوبا الثانى ، وضريح ملوك موريتانيا الذى حوى فى جوفه جثمان الملك وزوجته ابنة كليوباترة وماركوس انطونيوس ،والذى كانت الاشجار والرياحين والازهار تغطى سفوح التل الذى شيد الهرم على قمته •

ولو سألت : « ما هذا البناء ؟ » لأجابه الذين تسألهم : « هذا قبر الرومية » •

وكلمة « الرومية » هنا معناها « المسيحية » فمنذ أن اشتبك العرب المسلمون في حروب طاحنة مع دولة الرومان الشرقية ، و « الروم » أصحاب بيزنطة ، أصبحت كلمة « رومي » في عرفهم مرادفة لكلمتي « مسيحي » و « نصراني » وظلت تؤدي هذا المعنى مدة طويلة من الزمان .  
وقد راجت في الجزائر ، وفي وقت لا يمكن تحديده ، اسطورتان اثنتان ، حول هرم جوبا :

الاولى تقول : بأن ذلك البناء كان مثنوى لاميرة مسيحية دفنت فيه مع كنوزها الكثيرة ، ولهذا عرف البناء باسم « قبر الرومية » .  
والثانية تقول : بأن ساحرا من الغرب تمكن من فتح باب الضريح والاستيلاء على كنوز الرومية .

وليست الاسطورتان غير رواية للحقيقة مشوهة ، تناقلتها الالسنه على كر الاجيال ، فحورتها جيلا بعد جيل ...

فبالبناء ضريح للملكة وملك وثنيين سطا عليه اللصوص فنهبوا الكنوز التي دفنها بطليموس مع رفات أبيه وأمه، ولم يتركوا حتى للنعمشين وللغظام أثرا ...

وحط الدهر على البناء وعبثت به أعاصير الطبيعة ، فلم يبق اليوم من رونقه السابق ، وروعه الماضية ، غير تلك الكومة من الحجارة والأتربة والاعمدة المتداعية ، التي يسميها الناس «قبر الرومية» وهو اسم لا ينطبق على المسمى ...

# ابن القمر

ضحك له الحقل ثم عيس في  
وجهه ، فارتفع ثم هوى  
وراح ضحية القدر والطمع !

.....



كانت ليلة مظلمة ممطرة ، وأمواج البحر المتلاطمة الهائجة يسمع لها من بعيد هدير مزعج متواصل ، والبرق يشق سواد الليل بلمعانه ، تتبعه الصواعق والرعود بهزيمها المرعب ، والملكة « أورانيا » متربعة على كومة من الوسائد ، أمام النافذة التي لا ترى من خلالها شيئا ، وتلقى بين لحظة وأخرى نظرة ملؤها الحب والحنان على زوجها الملك ، الحائر في القاعة الفسيحة ، كاسد في قفص ، يروح ويحيى مهموم البال شارد الفكر .

ومزق الرجل الصمت فجأة ، سائلا : « أورانيا .. أتعتقدين حقا أن الامبراطور « كاليكولا » يضمركى شرا ، وأن دعوته تنطوى على مكيده أو خيانة ؟ »

كان صوت الملك متهدجا ونبراته تنم عن اضطراب نفسه ، ولكن الملكة أجابته بتفريد شجي كغناء الليل :

ـ بطليموس ، حبيبي .. ما أردت بما أفضيت به اليك من رأى غير تحذيرك من التفاوض والتواكل ، لا إثارة المخاوف في نفسك ، وحملك على الوقوف موقفا لا يليق بأصحاب التيجان .. ومهما يكن من أمر ، فلا بد لك من تلبية دعوة الامبراطور ، والذهاب الى روما ، نزولا على رغبته ، لان ملكنا تابع ملكه ، وسلطاننا مستمد من سلطانه .. ولكن .. هناك .. كن يقظا .. ولا تثق بأحد من أولئك الرومانيين المخاتلين ، واحترس من كل ما يجرى حواليك ، ولا تنتقل من مكان الى آخر بدون أعوانك الذين سيرافقونك في هذه الرحلة الخطرة .

ـ أنت على حق في كل ما ذهبت اليه ..

ـ انك لا تجهل يا بطليموس ان « بورفور » الحسناء التي أهديناها للامبراطور « كاليكولا » اجابة لطلبه ، ليست في الواقع غير جاسوسة لنا في بلاط قيصر ، وهي توافيني بلا انقطاع بكل ما يحدث فيه ، وما يقال، وهي أيضا التي أرسلت تحذرنى من مظاهر الصداقة والمحبة التي يبديها لنا « كاليكولا » في هذه الايام ، فان هذا الامبراطور السفاح المجنون في حاجة الى المال ، كماداته ، وفي سبيل الحصول عليه ، لن يتردد في الاقدام

على أى عمل من أعمال العنف : التزوير ، السرفة ، الاكراه ، القتل ..  
فلنحترس !

... صدقت ، لنحترس !

بعد انهيار حكم البطالسة فى مصر ، بانتحار آخر ملكاتهم فيها ،  
كليوباترة عشيقه القائد الروماني انطونيوس ، نقل أبناء الملكة وأفراد  
أسرتها الى روما ، حيث تولى أمرهم الامبراطور أوغسطس قيصر وخلفاؤه  
.. وكان لكليوباترة ابنة من انطونيوس عرفت باسم «كليوباترة سيلانة»  
ومعناها «القمر» باليونانية ، زفت الى «جربا الثاني» ، ملك «موريتانيا»  
على الساحل الافريقى ، فلما توفى فى سنة ١٨ بعد الميلاد ، خلفه على  
العرش ملكا على «موريتانيا» التى ضمت «نوميديا» أيضا ، ابنه  
«بطليموس» حفيد كليوباترة وانطونيوس من ابنتهما «سيلانة» .

وقد حافظ الملك الجديد على صداقة الرومانيسين الذين أقروه فى  
ملكه ، وظل فى جميع أعماله ونيا لهم ، فساعدهم على اخماد ثورة الافريقين  
بقيادة «تكفاريناس» فى عهد الامبراطور «تيبيريوس» ، ولكنه بدأ  
يوجس منهم خيفة منذ أن اعتل عرش القيصرية رجل قاسى القلب ، شاذ  
الشعور ، مختل العقل ، هو «كاليكولا» الفاسق الفاجر ، الذى حكم روما  
فى سنة ٢٧ للميلاد وهو فى الخامسة والعشرين ، والذى كان فى حاجة  
دائمة الى المال ، يأخذه من الافراد والجماعات والشعوب بلا وازع ولا  
حساب ، ليملا به خزائن الدولة ، ثم يقترب منه ايضا ملء قبضتيه لينفقه  
فى أعماله الجنونية بلا وازع ولا حساب !

وقد بلغ الامبراطور السفاح ان فى حوزة ملك «موريتانيا» أموالا  
طائلة ، وأكداسا من الذهب والفضة ، وأكواما من الحلى والجواهر ، وهى  
ما تبقى من كنوز البطالسة التى نقلت من الاسكندرية يوم رحلت عنها  
الاسرة المالكة وكان هذا حقا .. لان «بطليموس» كان فى الواقع أغنى  
ملوك عصره ، بل أغنى من قيصر نفسه ، المترعب على عرش روما ، والذى  
لم يكن ببطليموس غير واحد من عشرات الملوك التابعين له ..

وكانت الملكة «أورانيا» تعنى عناية خاصة بصيانة ثروة زوجها  
الهائلة ، احتياطا منها للمستقبل ، وخوفا من أن تمتد يد القدر بسوء الى  
عرش «موريتانيا» وأصحابه ، كما امتدت من قبل الى عرش مصر وأصحابه .  
ولهذا أنشأت مخايب حصينة بمدينة تاماكا ، أخفت فيها ما تملك من  
جواهر وحلى وفضة وذهب من كنوز البطالسة الباقية ، وجعلت تأخذ منها  
ما تقضى الضرورة بأخذه ، وتكتتم ما استطاعت سر المخايب عن أسماع



شارع في تطوان القديمة  
وتطوان أو تطاون في منطقة الريف  
كانت من ممالك ملوك موريثانيا باسم « تاما »

الناس وأبصارهم .. فلما وصل النبأ إلى « كاليكولا » ، القيصر المجنون  
التمطش إلى المال تعطشه إلى الدماء ، جعل يرسم الخطط وينصب الشراك  
للاستيلاء عليها .

وكان من بين الأساليب التي لجأ إليها لاستيفاء معلوماته عن كنوز  
البطالسة ، جلب عشرات من القواد ورجال الحاشية والخدم والعيبد من

موريتانيا الى روما للاحاقهم بخدمته ، واغداق نعمة عليهم ليستطلع منهم أخبار مولاهم بطليموس ومولاتهم أورانيا ٠٠ وقيل له ان للملكة وصيفة مصرية الاصل ، هي موضع ثقة الملكة ومستودع أسرارها ، فأرسل الامبراطور يطلب من بطليموس اهداءه إياها لتكون في خدمة زوجته وأخواته ، ولم يجرؤ الملك على رفض هذا الطلب، فافترقت الملكة «أورانيا» عن وصيفتها على مضض ، ولكن بعد أن تواطأت معها على أن تكون في قصر الامبراطور ، عينا لها وأذنا ، وأن تنقل اليها كل ما يصل الى علمها من أعمال قيصر وأقواله ونواياه .

وذهبت الوصيفة « بورفورا » الى عاصمة الامبراطورية العظيمة ، ولكنها بدل أن تكون جاسوسة لقيصر على مولاتها ومولاها ، أصبحت جاسوسة لها على قيصر وزوجته وأخواته ٠٠ وهي التي أرسلت تخبر « أورانيا » بطمح الامبراطور في ثروة البطالسة ، ورغبته في الاستيلاء عليها ، وتحذرها مما تخفيه دعوة « كاليكولا » لزوجها بطليموس للذهاب الى روما ، من أهداف قد تكون وخيمة العاقبة على الضيف في كنف مضيفه ! ٠٠ وهذا ما جعل الملكة أورانيا تمن في التفكير ، وتباحث زوجها في أمر تلك الدعوة ، وتلج عليه بأن يصطحب معه جماعة من أعوانه المخلصين ، ويكون على حذر من كل حركة وسكنة تبدو من الامبراطور المجرم الماخن ٠٠

ورأى الزوج والزوجة أن لا سبيل الى التهرب ، لان في هذا ما قد ينير غضب قيصر وشكوكه ، فيعمد الى القوة والعنف ، ولا طاقة لموريتانيا على الوقوف في وجه روما ومناصبقتها العداء . فسافر الملك بطليموس مع حاشية من أبعده رجاله تفانيا في الاخلاص له ، وحل ضيفا على الامبراطور كاليكولا ، في قصر أعد خصيصا لحفيد كليوباترة ورفاقه الموريتانيين ، حلفاء روما الكرام الأعزاء !

وأمر قيصر بأن تعد العدة لرحلة في بلاد « غالبا » ، وأن يكون بطليموس ورفاقه في معيته ، وكانت الرحلة سلسلة متواصلة من الاعياد والمهرجانات والحفلات والمغامرات ، ثبت فيها جميعها للملك الموريتاني أن الامبراطور الروماني مجنون لا شك في جنونه ، سفاح لا يعرف قلبه الشفقة ، ولا يتردد في ذبح ضحاياه بيده ، ويتمنى « لو كان لشعب روما كله رأس واحد ليقطعه بضربة واحدة ! » .

واستقر المقام في النهاية للامبراطور ورفاقه في مدينة « ليون » حيث أعد قصر الحاكم للمأدبة من تلك المآدب التي كان « كاليكولا » يتفنن



فى اقامتها ، ويأمر بأن توضع فيها على الموائد أمام الضيوف ، الخرفان  
والثيران والحنازير البرية والجمال المجلوبة من الشرق ، كاملة كما هى  
وتقدم فيها الخمر فى قرب من جلد الحمير ، وبعد أن يهوى المدعوون الى  
مرتبة البهائم ، يرفع قيصر عصاه الذهبية التى لم تكن تفارقه ، ويشير الى  
واحد بعد آخر من الخدم والعبيد ، وأحياناً الى الجوارى من النساء ، أو  
الى أحد المدعوين اذا تراءى له ذلك ، فيثب الحراس على من تصيبه تلك  
القرعة الهوجاء ، ويفصلون رأسه عن جسده ، ويلقون بهذا الرأس على  
الموائد وسط الضحك والتصفيق والتهتافات لقيصر بطول العمر !

وهذا ما حدث فى تلك الليلة ، فى قصر الحاكم الرومانى بمدينة  
ليون : فقد أكل الامبراطور ومدعووه وشربوا وسكروا ، وبدأ الحراس  
يلبون اشارة مولاهم ، فيذبحون ويطوفون بالرموس الحمراء يضعونها  
فى الاطباق بين أكوام اللحوم والفاكهة ...

وفى غمرة تلك المأدبة الجهنمية ، شعر الملك بطليموس بيد تمسك  
بكتفه ، وبأنفاس حارة تداعب وجهه ، وسمع صوتاً عذباً يهمس فى أذنه  
قائلاً : « مولاى لا تلتفت الى وأنا أستبدل الاطباق والاقداح بشيرها ...  
أنا بورفورا ... لماذا جئت الى هنا ؟! اهرب ... قبل قوات الوقت ...  
فى وسعك أن تنتحل أى عذر للخروج من هذه القاعة ... وعلى الباب ...  
ثلاثة من النساء سيساعدنك على الهرب ... ان كاليكولا عازم على ألا  
يدعك تخرج حياً من هنا ! » .

قالت الفتاة هذا بلهجة ثابتة ، وكلمات بطيئة ، بدون أن يفتن اليها  
أحد ، على أمل أن يعمل سيدها بطليموس بنصيحتها ، وينهض لساعته  
من مقعده ، وينجو بنفسه من موت مدبر له ... ولكن بطليموس الملك كان  
ثملاً مثل كاليكولا الامبراطور ، ومثل غيره من المدعوين جميعاً ، من  
الرومانيين والموريتانيين على السواء ! فبدلاً من أن يفعل ما أوصته به  
الوصيفة الوفية ، رفع رأسه ووقف مترنحاً ، وأرسل فى فضاء القاعة  
قهقهة عالية ، وقال مخاطباً كاليكولا :

— أسمع أنت يا قيصر ما تقوله هذه الفتاة ؟ أسمع أنت ؟ تقول  
انك عازم على قتلى ! انها مجنونة يا قيصر ... وهى التى تستحق الموت  
لأنها تفتري على مولاها ... انها ...

ولكن « كاليكولا » لم يترك ضيفه الملك يسترسل فى هذيانه :  
فوثب من أريكته وثباً ، وأشار الى الفتاة فأطبق عليها الحراس وأخذوا  
أنفاسها وجروا جثتها بين الموائد الى حيث انتصب قيصر واقفاً ، وعيناه

تقدحان شررا ، والزبد يسيل من فمه وهو يقول مخاطبا ضيفه الموريتاني:  
« صدقت يا بطليموس ، انها تستحق الموت .. ولقد لقيت ما تستحق ،  
كما ترى .. ولكن .. صدقت بورفوراً أيضاً أيها الملك ، فيعاً ذهبت  
اليه .. »

وباشارة من الامبراطور الخليج السكران ، أطبق الحراس أيضاً على  
بطليموس الملك ، ومزقوا جسده بالخناجر والسيوف ..

كان ذلك في سنة ٤٠ للميلاد ، وقد أصدر الامبراطور كاليكولا  
أمره ، بعد مصرع غريمه ، بجعل مملكة موريتانيا ونوميديا المتحدة ولاية  
رومانية .

ولما بلغ الملكة « أورانيا » خبر الفاجعة التي حلت بها ، أقسمت ألا  
تدع الامبراطور قاتل زوجها يشفى غليله منها ، ويسبغ نهمه الى المال  
بالاستيلاء على ثروتها ، ففرت من عاصمتها الى الجبال القريبة، واعتصمت  
فيها ، وقد مرت شهور حاول فيها رسل « كاليكولا » الاتصال بالملكة  
الهاربة ، والبحث عن الكنوز المخبأة .. ولكن عبثاً .. حتى اذا ما انفضى  
عام واحد على مصرع « ابن القمر » سقط الامبراطور نفسه قتيلاً بأيدي  
أعدائه ، فاستراح العالم من شروره ..

أما « أورانيا » الموريتانية وكنوزها ، فقد أسدل عليها ستار  
كثيف من النسيان : الى أين ذهبت ؟ وأين ماتت ؟ وكيف أخفت كنوزها؟  
لقد ماتت دون أن تطلع أحداً على سرها ، ولم يتكلم أحد من الذين  
لازموها في المرحلة الأخيرة من مراحل حياتها ، في الجبال الشاهقة ،  
المشرقة على « تاماكا » ..

وما « تاماكا » ، قلعة موريتانيا القديمة ، غير « تطوان » عاصمة  
الشمال في المغرب العربي الاقصى اليوم ..

فلو بحث الباحثون ، ونقب المنقبون في جبال تطوان بالمضرب ،  
لقادتهم الصدف الى العثور على رفات زوجة « ابن القمر » بين أكداس الذهب  
والحلي والجواهر التي دفنت معها !

# ثورة على روما



« الحرية مع الفقر والشقاء  
خير من العبودية مع الغنى  
والرخاء ! »



سكتت المرأة بعد أن أفرغت ما في جعبتها من أقوال وأدلة لاقتناع الرجل بأن يعمل في الحال بنصيحتها • وسكت هو بعد أن وافق على رأيها ، وناقشها لا في صواب ذلك العمل الذي جاءت تطلب منه القيام به ، بل في الوسائل التي يمكن الاعتماد عليها لتحقيقه •••

فكر « تكفاريناس » طويلا • ومالت عليه « سيفا » وأسندت رأسها على كتفه ، واحاطت عنقه بذراعها العارية ، وتنهدت مرة بعد مرة ، فقيل له ان تنهداتها ليس لهاغير معنى واحد : « اما الاصفاء الى نصيحتها وعلان الثورة ، واما القضاء على كل أمل في التحرر من النير الروماني في بلاد نوميديا الافريقية ! » •

ولم يطل التفكير طويلا ، فقد اعتزم « تكفاريناس » أن يعمل • ولم يكن اعتزامه نتيجة اقناع المرأة له فحسب ، بل كان أيضا قلبية لنداء خفى ظل الرجل يسمع هاتفه يهيب به آناء الليل وأطراف النهار ، ويطن في أذنيه مرددا بلا انقطاع : « الحرية يا تكفاريناس ••• الحرية لوطنك نوميديا ، حتى ولو كانت مصحوبة بالفقر والشقاء ، خير ألف مرة من العبودية في ظل الحكم الاجنبي المصحوب بالفنى والرخاء ••• »

ثم يردد الصوت الخفى أيضا : « يجب ألا تكتفى بالتفكير في نفسك وحدها يا تكفاريناس ، بل عليك أيضا أن تفكر في وطنك ••• أنت جندي في جيش روما ، وبلادك مستعمرة رومانية ••• وخير لكألف مرة أن تكون ثائرا في الجبال لتحطيم القيود التي تكبل حرية بلدك من أن تبقى جنديا تتلقى الاوامر من جلاد بلدك ! »

أصوات خفية ، أضيف اليها الآن صوت آخر ، ليس خفيا ، بل هو مسموع ترن نبراته رنيناً عذبا في الاذن ، وينطلق من فم جميل ، هو فم تلك المرأة الساحرة ، التي جاءت تقنع تكفاريناس بأن ينفذ ما يجول في خاطرها وفي خاطره أيضا •••

الثورة لتحرير نوميديا من حكم الرومان ، ثم مواصلة القتال لتحرير افريقية كلها ، وضمها في دولة تمتد على الساحل الشمالى للبحر المتوسط ، من حدود مصر شرقا ، الى مياه المحيط غربا •••

وتكفاريناس واحد من أبناء نوميديا ، استهوته مظاهر البذخ في روما ، وخدعته الوعود التي بذلها له الحكام الرومانيون في بلاده، فأنخرط في سلك الجندية ، وأصبح خادما من خدم روما ، ومحاربا في صفوف جيشها ، ومنقذا لارادتها في بلاده ...

أصبح سلاحا من أسلحة الغريب التي ترغم القريب على الخضوع والخنوع ..

وعين مشرفا على تنظيم حلقات المصارعة في روما ، فهاله ما رآه من ظلم وقسوة واستهتار بالحياة . وأثار نغمته وغيظه استقدام بعض مواطنيه من افريقيا ليشتبكوا في تلك الحفلات الصاخبة الهمجية التي كان المصارعون يقتتلون فيها لارضاء فيصر وشعبه . وارواء تعطش الرومانيين الى الدماء المسفوكة !

وتساءل تكفاريناس : « أينور هؤلاء المصارعون يا نرى ويحملون السلاح معي لمحاربة الطفلة ؟ »

رأى عذاب مواطنيه عن كثب : رأهم يئنون من وطأ العبودية في وطنهم الافريقي ، ورأهم يموتون في ساحات المصارعة بروما ، فتألم ..

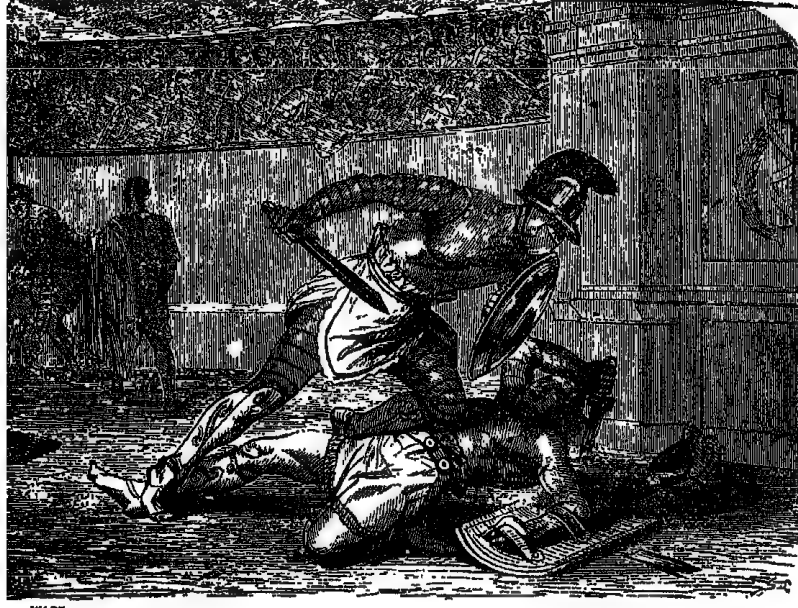
واذا به ذات يوم يسمع ذلك الهاتف الذي أهاب به أن يتور ليرفع الظلم عن أولئك المواطنين ..

أما هي ، المرأة التي ذاع صيتها في نوميديا ، وانتقل الى روما فاقتحم القصور الفاخرة ، وبلغ مسامع الامبراطور ، فهي من بنات نوميديا أيضا ، مثل تكفاريناس . ومعروف عن أسرتها انها جاءت في قديم الزمان من جزيرة العرب ، واستوطنت جبال « أوريس » في بلاد نوميديا ، وانها هي « سيفا » كانت في وقت من الاوقات وصيفة الامبراطورة في قصر « تيبيريوس فيصر » بروما ، ثم هربت من عاصمة الامبراطورية وعادت الى وطنها ، على أثر مصرع أفراد أسرتها جميعهم ، في عراك مع الجند الروماني .

قتل الرومانيون أباهما ، وأمهها ، واخوتها الاربعة ، واحرقوا مزرعتهم الصغيرة في سفح الجبل على مقربة من « سيرتا » عاصمة نوميديا ...

وهربت سيفا من روما عائدة الى بلادها وفي صدرها حقد يغلي ، وفي رأسها فكرة تسعى لتحقيقها ...

ووجدت تكفاريناس في طريقها فأدركت في الحال انه الأداة التي



المصارعة حتى الموت في روما الأسرى والعبيد يموتون لكي يضحك  
قيصر ويلهو شعبه !

أعدتها لها السماء ، لكي تحقق بها الفكرة ، وتشفي غليل الحقد في  
نفسها !

وتوالت الاحاديث بين الجندي الراغب في أن يكون زعيما لبلاده  
وقائدا لثورة ، والفتاة الساعية الى الانتقا- لأهلها والثار للدم المسفوك .

وتم الاتفاق بين الاثنين ، لان كل واحد منهما جاء للآخر بما كان  
ينقصه .. وهكذا تتم الثورات : كل واحد من الذين يشتركون فيها يقدم  
شيئا مما تعتمد عليه القيادة لضمان النجاح ..

كانت سيفا في حاجة الى قائد يسير بالمجاهدين الى الميادين فوجدته  
في شخص تكفاريناس ...

وكان تكفاريناس في حاجة الى المادة التي لابد منها لتغذية الثورة  
بالسلاح والمؤن ، فجاءته بها سيفا ٠٠

هربت من قصر تيبيريوس قبصر ولكنها حملت من الجواهر والحلي  
والحجارة الكريمة ما يكفي لشراء كل ما يوجد في افريقية من أسلحة ،  
وكل ما يحفظ من مؤن ٠٠١  
وقالت لتكفاريناس :

- أنت في حاجة الى المال وما هو ذا المال بين يديك ٠٠  
ووضعت عينيها أمام عينيهِ ، وشفتيها أمام شفتيه ، وأطلقت عبارة  
الاغراء الاخيرة من قمها العذب :

- وأنت في حاجة الى الحب ، وما هو ذا الحب أيضا يطوقك  
بذراعيهِ ٠٠١

وكانت القبلية الحارة التي مهر بها الرجل والمرأة عهديهما ، فطبعا  
الحب المتبادل بطابع الثورة ، وطبعا الثورة بطابع الحب ٠٠٠

أصبحا عشيقين قبل أن يصبحا ثائرين ٠٠٠

واختفى تكفاريناس عن الانظار ، واختفت معه سيفا ٠٠٠

وفجأة ، هبت العاصفة ، وارتفعت الصيحات في أنحاء نوميديا كلها  
في الجبال وفي السهول على السواء : صيحات الثائرين وقد تدفقوا من  
كل فجج لصبوب على مرابط الجنود الرومانيين ، وصيحات الجنود الذين  
فوجئوا بانفجار ما كان أحد منهم ينتظره !

أعد تكفاريناس عدته بمهارة فائقة ، وساعدته في ذلك سيفا الفاتنة  
الساحرة ٠

توافر المال لدى الرجل ، بما حملته اليه المرأة من ثروة سرقته من  
الرومان كما سرقها الرومان من البلدان التي يحتلونها ، وتوافر المال ،  
توافرت الاسلحة ، وتدققت المؤن ، وتزايد عدد المقاتلين يوما بعد يوم ٠٠

وانضم اليهم مئات من الأسرى والعبيد الذين جاء بهم تكفاريناس  
من روما ، وبينهم عدد كبير من المصارعين !

طاف سيفا في المدن والجبال والحقول ٠ في الحواضر والبادي ٠  
على ساحل البحر وفي داخل البلاد ٠ داعية مواطنيها الى القتال في سبيل



الحرية المنشودة والكرامة العالية • قلبى السكان فى نوميديا كلها نداء المرأة الداعية الى تلك المثل العليا ••

وانضم المتطوعون الثائرون الى الجنود الذين تمكن تكفاريناس من اقناعهم بوجوب الاشتراك فى الثورة ، لانها ثورة المحكوم على الحاكم ، ثورة القريب على الغريب ، ثورة المواطن على الاجنبى الدخيل ، ثورة نوميديا على روما ••• بل ثورة كل ولاية رومانية على العاصمة الطاغية ا

وكان بين أولئك الجنود رجال من مصر ، ومن سورية، ومن فينيقيا، ومن بين النهرين ، فضلا على النوميديين والليبيين وغيرهم من سكان افريقية الخاضعة للحكم الرومانى •••

من أولئك جميعا ، تألف جيش الثورة التى قادها تكفاريناس مدة ثمانية أعوام ، والتى أوشكت أن تقوض أركان الامبراطورية وتزعزع كيائها ••

نشبت الثورة فى سنة ١٦ وظلت مشتعلة الى سنة ٢٤ للميلاد،وفى تلك الثورة ، حاربت كتيبة من الفارسات بقيادة سيفا ، فأخذت المرأة نصيبها مع الرجل ، من القتال فى سبيل الوطن •••

وفى المكان الذى اتخذته قائد الثورة مركزا لقيادته ، جمع أعوانه المقربين وزعماء القبائل ، وقطع الجميع على أنفسهم « عهد الدم » بأن أقسموا فيما بينهم على أن يواصلوا القتال حتى يلبثوا الغاية المنشودة أو يضحوا فى سبيلها بالحياة • ووقفت بينهم « سيفا » خطيبة القائد ، وقدمت لهم وعاء فيه دم فائر ، وطلبت منهم أن يغمسوا أيديهم فيه توكيدا للعهد المقطوع ، وللقسم الذى ربطوا أنفسهم به ••• وهذه عادة قديمة لا تزال الى أيامنا هذه حية فى بعض أنحاء الشرق الادنى وافريقية الشمالية •••

وانطلق الثائرون الى ميادين القتال عملا بذلك العهد الذى قطعوه ا

قسم تكفاريناس جموعه الى كتائب وجماعات قليلة العدد سريعة الحركة ، وراح يهاجم الرومان فى كل مكان وفى آن واحد •••

وأرسلت روما لمقاتلة الثوار أشهر قواتها ، منهم فوريوس كاميليوس، ولوسيوس بروثوس ، وجونيوس بليزوس ، وغيرهم من دهاة الحرب وابطال الميادين •••

عليهم تكفاريناس أو غلبوه • وكان بعد كل هزيمة يتراجع الى جبال أوريس ثم ينطلق منها من جديد ليهاجم ويقتحم وينتصر ...

جرح خمس مرات وهو في طليعة الصفوف ، ووقع مرة أسيرا في أيدي كتيبة رومانية ولكنه أفلت من الأسر بمعجزة • وجرح سيفاً مرين أمام أسوار « سيرتا » العاصمة التي كانت دائما تعرض الشائرين على أخذها عنوة من الرومان ...

وهال الامبراطور تيبيريوس أن تعتري الامبراطورية تلك الهزة العنيفة ، وأن تعجز جحافلها عن قمع ثورة « الافريقين » وإعادة المحكومين الى حظيرة الطاعة ، فأصدر أوامره بأن تجرد الدولة جميع قواتها ، وأن تنفق الاموال بلا حساب ، ويرسل الجنود الى الموت فوجاً بعد فوج ، حتى يفنوا جميعاً وتجف خزينة المال - أو يؤتى بفائدة الثورة الافريقية ذليلاً مكبلاً بالحديد ! •

ويؤتى معه بالمرأة التي عدها الامبراطور محرصة على تلك النورة الخطرة !

وكان في النهاية للامبراطور ما أراد • وتغلبت السكترة على القلة ، ووفرة السلاح والفن العسكري على الشجاعة المقترة الى العلم والنظام • • عهد الامبراطور بقيادة الجيوش الرومانية الى أشهر رجال الحرب في ذلك الوقت • القنصل « دولابيل » •

ودولابيل هو الرجل الذي شاءت الاقدار أن تخدم ثورة تكفاريناس على يده ، في سنة ٢٤ للميلاد ، أي بعد نشوبها بثمانية أعوام ! كان الثائرون يحاصرون مدينة « توبرسيكوم » فأرغمهم دولابيل على فك الحصار، وهزمهم في معركة دموية هائلة، اضطر بعدها تكفاريناس الى التراجع لاعادة تنظيم جيوشه ...

وبالقرب من مدينة « أوزيا » لحق به الروماني العنيد ، وهزمه مرة أخرى ، فترجع تكفاريناس ثانية ولكن صفوف رجاله كانت قد تضعفت •

عيثا حاولت سيفاً ، في تلك المعركة الفاصلة ، أن تحمل الثائرين على الصمود في وجه الرومان ، بأن تهجم مرة بعد أخرى على رأس كتيبة النساء المحاربات • • •

فقد عجز الافريقيون وحلفاؤهم عن الصمود • وشعر تكفاريناس بأن النهاية قد اقتربت ، وانه واقع لا محالة في أيدي أعدائه الرومانيين •

ونادى رفيقته في الجهاد ، وشريكته في السراء والضراء ٠٠٠  
ولبت سيفاً نداه ٠٠٠

تراجع الناثرون عائدين الى جبالهم بعد أن تكاثرت عليهم جموع  
الرومان ٠٠٠

وبعد المعركة ، طاف القائد دولابيلاً وأعوانه في أنحاء الميدان حيث  
تكدست الجثث ٠٠٠

وبين تلك الجثث ، عثر الروماني على الجثتين اللتين قيل له انهما  
جثتا تكفاريناس وصديقه سيفاً ٠٠٠

كانت الجثتان متعانفتين ٠٠٠

وكانت الدماء تتدفق من جرحين عميقين ، جرح في صدر الرجل ،  
وجرح في صدر المرأة ٠٠٠

عمد تكفاريناس الى الانتحار خوفاً من الوقوع في الأسر ٠٠٠

وجارته سيفاً فيما أقدم عليه ، فطعنّت نفسها بالخنجر الذي مزق  
به حبيبها صدره ٠٠٠

ميتة واحدة ، بخنجر واحد ، في مكان واحد ٠٠٠

واختلطت دماء الشهيدين وامتزجت على أرض واحدة ٠٠٠

عهد الدم نفذ الى آخره !

لم تسفر ثورة تكفاريناس عن تحرير نوميديا ، ولكنها كانت مثلاً  
رائعاً ضربه الناصر البطل لطلاب الحرية التي هي دائماً وفي كل مكان وليدة  
النورات ٠٠٠

ثورة تخمد ٠٠٠ وثورة تنجح !

فشل يعقبه فوز في القدر !

ونوميديا التي ثار تكفاريناس ، وساهمت معه سيفاً ، من أجل  
تحريرها ، تدعى اليوم « الجزائر » ٠

وعاصمتها « سيرتا » هي اليوم « قسنطينة » ٠

أما جبال « أوريس » فلا تزال تحبل اسمها ، ولا تزال الى أيامنا

هذه موطن البطولة ، والبركان المتأجج دائما بنيران الثورات ... في  
سبيل الحريات .

وفي وادها ووديانها انطلقت الرصاصات الاولى في ثورة الشعب  
الجزائري ، في سنة ١٩٥٤ .

وهي الثورة التي انتهت بنصر مبين ، وباسترجاع الاستقلال  
والسيادة من غاصبيهما !

## قدیس وهوریہ

اخذ الافرنج من عرب تونس  
قدیساً مینا ، وارساوا  
الیهم حوریة حیه ! . . .



بلغ رسل الامبراطور شرلمان المرحلة الأخيرة من المراحل الشاقة التي تجشموا خلالها المتاعب برا وبحرا ، للوصول الى القيروان ، وأداء المهمة التي مهد بها اليهم العاهل العظيم ، وكانوا أكثر من عشرين شخصا بينهم ثلاث نساء وبعض الرهبان ٥ ممن سبق لهم أن زاروا أرض افريقيا من قبل .

وقبل ذلك الوفد الافرنجي في الامارة العربية بالترحاب والاکرام .  
فان صاحب افريقية في ذلك الوقت ، ابراهيم بن الأغلب ، كان على أحسن ما يكون من الود والوفاء مع شرلمان امبراطور الغرب ، الملك في فرنسا وجرمانيا وإيطاليا ، بالرغم من اشتباك الافرنج وعرب الاندلس في حروب مستمرة لا تنقطع حلقاتها .

وكان العباسيون المالكون في بغداد ، يحاولون منع فلول الامويين وأنصارهم من بسط سيطرتهم على أطراف الدولة العربية في الغرب ، ولهذا فقد عهد هرون الرشيد في سنة ١٨٣ للهجرة ، الموافقة لسنة ٨٠٠ للميلاد ، الى ابراهيم بن الأغلب الجزائري ، بالولاية على « افريقية » التي كانت تضم في ذلك الوقت جزءا من الجزائر ، والقطر التونسي وطرابلس وبقرة . وكان هرون الرشيد يأمل أن يظل ابن الأغلب وخطاؤه على ولائهم للعباسيين ، بعد أن استقل الادارسة في المغرب الأقصى والامويون في الاندلس .

وأنشأ ابراهيم في افريقية ملكا واسعا ، وشيد في مدينة « القيروان » التي اتخذها عاصمة له ، عرشا توارثه أبناؤه وأحفاده من بعده ، من سنة ٨٠٠ الى ٩١٠ للميلاد . ( ١٨٣ الى ٢٩٨ هجرية ) فكان عهد الأغلبة هذا أمجد حقبة في تاريخ القطر التونسي ، مقر حكمهم ومحور نشاطهم . فرأس الأسرة الأمير ابراهيم بن الأغلب ، رسم الخطوط الكبرى لسياسة اصلاح وتعمير وانشاء ، نفذ بعضها في حياته ، وترك لخلفائه من بعده مهمة انجاز البعض الآخر ، فأنجزوه على أحسن وجه . وفي بضع عشرات من السنين ، أحيطت السواحل التونسية بشبكة من القلاع والحصون ، واخترقت أرض تونس الطرق والتنويات ، وشيدت في

العاصمة وضواحيها الدور الفخمة ، والقصور المنيعة ، وغرست في جميع الانحاء بساتين الفاكهة من كل نوع ، جرى بها من مصر والشام ولبنان ، وانطلقت القوافل شرقا وغربا ، تحمل منتجات افريقية ، وتجيء بغيرها . وغمرت الدولة الفتية موجة من النشاط والرخاء لم تعرفها من قبل .

الى تلك الدولة الناهضة السعيدة الموفقة ، أوفد الامبراطور شرلمان رسله لمقابلة الجالس على عرش القيروان ، ووضع الهدايا الثمينة بين يديه ، والافضاء اليه برجاء لا يصعب عليه تحقيقه .

جاء وفد شرلمان الى القيروان ليطلب من ابراهيم بن الاغلب السماح للافرنج بأن يفتحوا قبر الاسقف « سسيريانوس » ويضعوا رفاته في صندوق ، ويعودوا به الى فرنسسا حيث يرغب الامبراطور شرلمان في دفنه داخل كنيسة مع رفات آباءه واجداده !

اما سسيريانوس ، فهو من الأبرار والأخيار . ولد بمدينة قرطاجنة بافريقية سنة ٢١٠ ميلادية . وقضى حياته منصرفا الى أعمال البر والاحسان . ونولى أسقفية قرطاجنة . ولما مات شهيدا بعد أن عذبه الرومان حتى أزهقوا روحه ، دفنه المسيحيون في مقر أسقفيته بقرطاجنة ، ومجدوا - منذ ذلك الوقت - ذكره ، وعدوه من القديسين . وهم يحتفلون بعيده في السادس عشر من شهر سبتمبر .

وكانت لهذا القديس مكانة خاصة في نفوس رعايا شرلمان من أبناء فرنسا ، فالحوا على مليكهم بعد مرور خمسمائة عام على وفاة القديس ، بأن يسعى لنقل رفاته الى فرنسا ، فأوفد رسله الى صديقه صاحب افريقية ، ليفضوا اليه بأمنية العاهل الشيخ .

ونزل الرسل الافرنج ضيوفا على الأمير ابراهيم في قصره بجوار القيروان وهو القصر الذي سمي فيما بعد بقصر « العباسية » وبعد انقضاء ثلاثة أيام ، أقيمت لوفد شرلمان مأدبة فاخرة ، وأعلن الأغلبى أنه ينزل على رغبة صديقه شرلمان ، ويسمح لرجاله بأن يتقبوا عن ضريح القديس المسيحي وينقلوا رفاته الى بلادهم .

كان بين أعضاء الوفد الافرنجى رجل يدعى « البارون كلود » وهو من أشرف القصر في بلاط الامبراطور شرلمان ، أقام مدة من الزمن في بلاد الأندلس ، وتعلم اللغة العربية ، وعلمها لابنائه . فالحقه الامبراطور بالوفد الداهب الى افريقية ليكون مترجما بين الافرنج والعرب في





صورة قديمة لمدينة تونس

القيروان . والحت « كلوتيلد » ابنة « كلود » على أبيها في أن يأخذها معه في رحلته الطويلة الشاقة ، فتردد أولا ، ولكنه اضطر الى الاذعان امام الحاج الفتاة . وهكذا وجدت « كلوتيلد » نفسها في القيروان ، ومعها اثنتان من وصيفات القصر ، بين عشرين رجلا من بنى قومها ، في بلد مسلم ، وفي بلاط ملك عربى !

وكان ابراهيم بن الاغلب من ناحيته قد اتخذ الحيلة لتأمين التخاطب بين رسل شرلمان ، وابناء البلاد من رعاياه . فعهد الى واحد من اخصائه بأن يتولى الترجمة بين الفريقين . ذلك الرجل هو « قياض الشهبى » النصرانى ، وهو غسانى

جاء أبوه من الشام وكان يحترف الطب ، فاستقر به المقام في القيروان، حيث مارس مهنته ، وعلمها لابنه من بعده ، فنشأ فياض في حاصمة افريقية طبيبا مثل أبيه ، محبوبا من الناس ، مشمولا بعطف الحكام ، وقد قربه ابراهيم بن الأغلب منذ اليوم الذي آلت اليه فيه الولاية من هرون الرشيد ، فأصبح فياض طبيب القصر والأسرة المالكة .

كان الطبيب الشاب في الخامسة والعشرين من العمر لما وفد على القيروان رسل شرلمان قادمين من فرنسا . وشاءت الأقدار أن يلتقى ذلك النصراني الشامى بالنصراني العربي « كلود » والد الفتاة « كلوتيلد » ، وأن يشترك الثلاثة ، الطبيب العربي ، والبارون الافرنجى، وابنته الحسناء في مهمة واحدة ، وهى تأمين التفاهم بين الفريقين ، الضيوف الذين لا يتكلمون غير لغتهم الفرنسية ، وأهل البلاد الذين لا يجيدون غير لغتهم العربية .

وقام الثلاثة بالمهمة خير قيام ...

ومرت أسابيع ، زار خلالها رسل شرلمان أنحاء الامارة الأغلبية ، ووقفوا مشدوهين اعجابا أمام المنشآت العمرانية التى تنبت من الأرض وتنمو كما ينبت العشب وينمو الشجر ، وراح بعضهم يسأل ويستفهم ويستقصى ، لكى يحمل الى سيده خبر تلك الأعمال العمرانية على أمل أن يحدو شرلمان في وطنه حلو صديقه الأغلبى في افريقية ، ويفعل هناك ما يفعله ابراهيم هنا .

قبل أن يبحر الرسل عائدين الى بلادهم ، حاملين الى الاميراطور الامانة التى انتشلوها من جوف الارض فى قرطاجنة دعاهم الامير الأغلبى الى مادبة وداع اقيمت فى القصر ، وحضرها عظماء المملكة والقواد والأعيان ، وأمر ابراهيم بأن تنحز الذبائح فى ذلك اليوم وتوزع لحومها على سكان القيروان جميعا ، فى الحدائق والبساتين ، كيلا يحرم أحد من الرعايا ، من الاشتراك فى توديع الضيوف الأغراب قبيل رحيلهم معززين مكرمين !

وفى وسط المأدبة ، فوجيء المدعوون باعلان خبر ما كان أحد ينتظره : ذلك هو خبر رحيل الطبيب فياض الشهى مع رسل شرلمان الى فرنسا ، حاملا معه دواء للامبراطور ، هدية من الامير ابراهيم ابن الأغلب .

فقد علم الأمير من رجال الوفد الافرنجى ، أن مليكهم الشيخ يشكو من أرق يحرمه من النوم ، ويسبب له صداعا لا يطاق ، ويوهن ما تبقى من قواه ، وهو فى سن الشيخوخة . فطلب الأمير من طبيبه الشامى علاجاً لما يشكو منه صديقه ٥ وأعد الطبيب العلاج فى شكل مزيج من عصارة الأعشاب والفواكه ، ووضع ابراهيم بن الاغلب كمية وافرة من ذلك الدواء فى قارورة من الزجاج بكسوها غطاء من الذهب الخالص لارسالها هدية الى شرلمان .

وطلب الطبيب بالحاح أن يحمل الهدية بنفسه الى المعاهل الافرنجى . فاجابه الأمير الى طلبه ، وسمح له بأن يرافق الرسل فى عودتهم الى وطنهم .

وأرسل ابراهيم أيضا الى صديقه شرلمان جوادا عربيا أصيلا ، وسيفا قبضته مرصعة بالجواهر ، وسرجا من صنع القيروان !

شفى الامبراطور شرلمان من العلة التى كان يشكو منها ، واستعاد راحته ونشاطه وهدوء أعصابه ، وصار ينام نوما عميقا لا تقلقه أحلام كئيبة ولا يقطعه عليه أرق مزيج : كل ذلك بفضل العلاج الذى حملة اليه فياض الشهبى ، طبيب الأغلبة الفسانى .

وفى سنة ٨١٢ للميلاد - الموافقة لسنة ١٩٦ للهجرة - عاد فياض الى القيروان ، فاذا به يجد مولاه وصديقه ابراهيم بن الاغلب على فراش الموت !

حاول أن ينقذه فلم يفلح . وأبدى المريض ارتياحه لما قصه عليه طبيبه من نجاحه فى مهمته لدى الامبراطور الافرنجى . وتضاعف سروره لما أخبره فياض بأنه لم يرجع الى القيروان وحده ، بل بصحبة زوجة افرنجية رضية بأن تربط حياتها بحياته ، وترحل معه من وطنها الى وطنه .

ولم يجد ابراهيم صعوبة فى معرفة اسم تلك الزوجة ، فقد انطلق الاسم من بين شفثيه همسا :

— كلوتيلد ؟

وأجاب فياض الشهبى :

— نعم ، كلوتيلد يا مولاي . . فقد مات أبوها ، وأصبحت

وحيدة في هذا العالم .. وهي نصرانية مثلي ، وتجيد اللغة العربية مثل  
أيها ...

وقال ابراهيم :

- وستصبح مثلك أنت عضوا صالحا في جسم هذه الامة التي  
تتبنّاها ...

- نعم ، لأنني سأعلمها الطب ، لكي تنصرف الى معالجة النساء  
المريضات بينما انصرف أنا الى معالجة المرضى من الرجال !

وسكت ابراهيم لحظة ، ثم أردف قائلا :

- لقد أخذ منا شرلمان قديسا ميتا ، وأعاد إلينا حورية حية !

وصدق ابراهيم بن الاغلب : فان زوجة الطبيب فياض الشهبي  
كانت على جانب عظيم من الجمال والذكاء ، وقد استقرت في القيروان  
تلك الحورية المولودة في فرنسا ، بينما استقر في فرنسا القديس  
سبريانوس المولود في افريقية !

وقد ذكر بعض المؤرخين الافرنج خبر علاج الامبراطور شرلمان من  
الأرق والصداع ، على يد طبيب يدعى « فايول » .

ولم يكن « فايول » طبيبا فرنسيا ، بل كان عربيا ، وهو  
« فياض الشهبي ! »

وقد مات شرلمان في سنة ٨١٤ للميلاد الموافقة لسنة ١٩٨  
للهجرة وسبقه الى العالم الآخر صديقه وحليفه ابراهيم بن الاغلب ، في  
سنة ٨١٢ للميلاد الموافقة لسنة ١٩٦ للهجرة .

# صهر-جج القيروان

---

تلعب الأقدار بمصائر الأفراد  
كما تلعب بمصائر الجماعات ،  
وكثيرا ما يساعد الإنسان  
الأقدار في تصرفاتها بدون  
قصص منه ! . . . . .



أصنى الأمير « أبو إبراهيم أحمد الأغلبى » باهتمام معزج بالمعطف الى ما قصه عليه الطبيب « سسادز » الذى جاء الى مدينة « القيروان » من بلاد الافرنج ، ورحب الأمير العربى بالفريب أيما ترحيب . وقال بعد أن فرغ من حديثه :

« - ان أبوابنا مفتوحة دائما لرجال العلم أيها الطبيب الفاضل ، ولهذا فأننا نكرم وفادتك ، ونسهل لك مهمتك ، وننزلك ضيفا علينا ، مدة اقامتك بين ظهرانينا فى القيروان عاصمتنا ، وفى الأرض الافريقية الخاضعة لحكمنا . . فالطب علم من العلوم التى وضعتها تحت حمايتنا ، وقد اخذنا بيد المنصرفين الى هذا العلم لان العناية بصحة الافراد واجب على الحكام . . وقد أرسلت فى طلب امرأة ذاع صيتها فى البلاد الافريقية ، واشتهرت بمعرفة خصائص الاعشاب ، ومداراة الناس بالعقاقير المستخلصة منها ، وهى تدعى « نفيسة التلمسانية » التى ستكون لك خير دليل فى بحثك ودرسك وتنقيبك . .

تراجعت آيات الشكر على لسان الطبيب الأفرنجى ، وقال للأمير الكريم الذى رحب به ذلك الترحيب الحار :

« - لقد طغت البلدان والأمصار أيها المولى ، جامعا ما حصلت عليه من معلومات وأدوية لعلاج مختلف الأمراض ، وساكون سعيدا بأن نتبادل - الطببة الافريقية وأنا - معارفنا وتجاربنا لمصلحة المرضى والمعلين . .

وعلى حافة « صهريج القيروان » جلست فى اليوم التالى « نفيسة التلمسانية » ومعها الطبيب « سادو » وراح الانان يتجاذبان الحديث فى العلم الذى انصرفا الى دراسته . . .

فما هو « صهريج القيروان » ؟ ومن هى « نفيسة » ؟ ومن هو « سادو » ؟

كانت الاحوال فى « افريقية » - وهى اليوم « تونس » مضطربة

مفعمة بالقلق وأسباب الفتن ، في أواخر القرن الهجري الثاني ، فأدرك الخليفة العباسي هرون الرشيد أن الحكمة تقضى باختيار حاكم يمتاز بعدله وصرامته ومرونته ، يعيد الى النفوس الطمأنينة ، والى البلاد الاستقرار ، والا ضاعت افريقية من العباسيين ، كما ضاعت منهم الأندلس وبلاد المغرب الأقصى ، حيث تولى الامر الأمويون والأدارسة ..

ووقع اختبار هرون الرشيد على بطل من أبطال الحروب ، كان أبوه « ابن سليم الأغلب » نصيراً للعباسيين وقت كفاحهم في سبيل الخلافة ، ذلك البطل هو « ابراهيم بن الأغلب » الذي هاجر من الجزائر - حيث كان يقيم - وقصد الى تونس وتولى الحكم فيها بيد من حديد .. واتخذ مدينة « القيروان » عاصمة له ، وذلك في سنة ١٨٣ للهجرة ، الموافقة لسنة ٨٠٠ للميلاد .

وكان ابراهيم بن الأغلب بعيد النظر ثاقبه ، على الهمة كريما سخيا طموحا ، فأقدم على سلسلة من الأعمال العمرانية ، خلال السنوات الاثنتي عشرة التي قضاها في الحكم ، وأصبحت « القيروان » في عهده مدينة زاهرة مزدحمة بالسكان ، تشع منها أنوار المعارف ، ويقصد اليها العلماء والتجار من كل فج وصوب ..

ونوارث « الأغالبة » الحكم فأنشأوا أسرة مالكة ، بلغ عدد أمرائها أحد عشر أميراً ، من سنة ٨٠٠ الى سنة ٩١٠ للميلاد ( ١٨٣ الى ٢٩٨ هجرية )

وخيم الأمن على افريقية في عهد هؤلاء الأمراء ، وازدهرت الزراعة والصناعة والتجارة ، وانتظمت وسائل النقل ، وانشئت المدن ، واستخرجت المعادن ، وشيدت المساجد ودور التعليم ، وأحيطت الامارة بحلقات متواصلة من الاسوار والقلاع والحصون ، فضلاً عن القصور التي ازدانت بها القيروان وغيرها من المدن ..

وفي سنة ٨٥٦ ميلادية الموافقة لسنة ٢٤٢ للهجرة - تولى الحكم أبو ابراهيم احمد الأعلى ، حفيد ابراهيم مؤسس الأسرة ، فسار على منهج جده ، وعنى عناية خاصة بتشجيع القصور واقامة الجسور ، وحفر الآقنية والاحواض ، لاختزان الماء ، وتوسيع ما حفره جده منها .. وهذه السياسة « المائية » مفخرة من مفاخر





صهريج الامراء الاغالبة  
بالقروان في البلاد التونسية

الأغالبة ، وقد ظلت عدة أجيال ، مصدر خير ونعمة للقطر التونسي  
بأسره ..

ولا تزال بقايا تلك الاقنية والأحواض - أو آثارها - باقية الى  
أيامنا هذه ، ومنها الحوض الكبير المستدير ، المعروف باسم « صهريج  
القروان » والذي يرجع الفضل في بنائه الى أبي ابراهيم أحمد  
الأغلبي . وكان ذلك الحوض يحفظ الماء للشرب والرى على السواء ،  
وحوله الحدائق والحقول والبساتين ، حيث يخرج سكان القروان  
للنزهة والترويح من النفس ..

أما « نفيسة التلمسانية » فقصتها أغرب من الخيال : فقد كانت  
جدتها أمها افرنجية من مرسيليا ، دفعتها الأحداث الى حياة لم تكن  
البيئة التي عاشت فيها تهيئها لها . فرافقت الجنود الافرنج في عهد  
« الامبراطور شارلمان » الى بلاد « الأندلس » ، وبقيت فيها لأنها علقت  
بحب شاب عربي ، تزوجته وهجرت من أجله قومها وبلادها وغيره

دينها . ولكن الرجل الذي ضحت من أجله بكل ذلك ، لم يكن أهلا للتضحية ، فقد اقترف جريمة قتل ، وفر من وجه العدالة ، وترك زوجته وحيدة في بلاد ليست بلادها ، وقوم ليسوا قومها . وانتطعت أخباره عنها ، فهامت على وجهها ، حاملة بين ذراعيها طفلة صغيرة ، هي نمرة ذلك الفرام ، والزواج . وانطلقت تضرب في طول الأرض وعرضها ، فاجتازت بلاد المغرب ، ووصلت الى الجزائر ، حيث قبض لها الله شخصا أنقذها مما كانت فيه ، فاستخدمها مربية لإبنائه في مدينة « تلمسان » وعنى بطفلتها ، حتى اذا ما شبت وترمرت ، زوجها لواحد من ابنائه .

ولكن الاقدار ظلت تلاحق المرأة وابنتها ، فقد قتل أفراد الاسرة التلمسانية في الحروب والثورات ، ولم يبقَ منهم على قيد الحياة غير ابنة المرأة الافرنجية وزوجها العربي « جابر » فهاجر الانسان الى الشرق ، قاصدين الى بلد ينسسيان فيه ما حل بنوهم من ويلات ، واستقر بهم المقام في القيروان ، حيث كان الامن مستتباً ، بفضل الاغالبية الميامين العادلين .

وعرف الرجل كيف يكتسب احترام الناس وعطف الحكام ، فانصرف الى ممارسة الطب والمداواة بالاعشاب ، وقد ورث ذلك الفن عن أمه الافرنجية التي أخذته عن زوجها الأول بالاندلس .

ومات « جابر التلمساني » في عهد أبي ابراهيم الاغلب بالقيروان، ولحققت به زوجته ، تاركة فتاة وحيدة هي « نفيسة التلمسانية » التي نشأت تمارس الطب والمداواة بالاعشاب أيضا مثل أبيها وأمهـا وجدتها . .

وذاع صيت « نفيسة » في البلاد التونسية ، وشملها أبو ابراهيم الاغلب بعطفه ورعايته ، وآثرت أن تعيش وحيدة بلا زواج ولا ولد ، في كنف الامراء الاغالبية . فاعتكفت في كوخ قريب من باب تونس بالقيروان ، باحثة دأرة منقبة ، تعالج المرضى بعقاقيرها المستخلصة من الاعشاب وثمار الاشجار ، ينثر عليها الاغالبية خيراتهم ، وتنثر هي الرحمة من حولها . . ؟

وكانت « نفيسة » يوم وفد الطبيب الافرنجي « سادو » على القيروان في منتصف العقد الثالث من العمر !

وأما « سادو » فان قصته لا تقل غرابة من قصة زميلته الطبيبة التلمسانية !

فقد وفد جده لاييه من الاندلس الى بلاد الافرنج ، في عهد الامبراطور شلمان أيضا ، وفي ظروف غامضة .. وهناك اتخذ الرجل لنفسه وطنا غير وطنه ، وقوما غير قومه ، ودينا غير دينه .. وكان طبيبا بارعا في شفاء الامراض بخلاصة الاعشاب .. وقد تزوج امرأة افرنجية قتل زوجها في حروب الاندلس ، وأنجب منها ابنا كبر ومارس الطب مثل أبيه ، وأنجب الابن طبيبا ثالثا ، هو « بولس سادو » الذي عول - بعد انقراض أسرته في بلاد الافرنج - على الطواف في العالم ، دارسا باحثا عن عقاقير جديدة ، وأبواب يجهلها من فن الطب ومواساة المرضى ..

كان اسم الجند الخسارج من الاندلس الى بلاد الافرنج « وهب السعدى » وهو من أسرة تنتمي الى نجد ، وفدت على الغرب مع الفاتحين العرب \* وعرف ابنه وحفيده فيما بعد باسم « سادو » عند الافرنج الذين امتزجت بهم الأسرة العربية ..

ولما خرج « بولس سادو » الطبيب العربي المتفرنج من مدينة « ليون » مقر أسرته ، وانطلق نحو الاندلس والساحل الافريقي ، معتزما قضاء حياته في سفر دائم وتنقل مستمر ، وجد من الحكام الافرنج والعرب على السواء ، عطفا وتقديرا ومعونة ، بالنظر الى ما كان يقوم عليه في ذلك العهد يحيطون به رجال العلم ، وعلى الخصوص الأطباء منهم ، من اكرام واجلال ..

وفي مدينة القيروان العربية الاغلبية ، شاءت الظروف ان يلتقى الطبيب الافرنجي بالطبيبة العربية ، وأن يجمع بينهما الامير « أبو ابراهيم الاغلب » صاحب تونس وحاكم افريقية ، ليواصل معا أبحاثهما ودروسهما في سبيل الانسانية المعذبة !

وما كان أبو ابراهيم الاغلب يعلم انه يجمع بين طرفي خيط واحد وانه يساعد الاقدار في لعبها بمصائر الناس !

مرة بعد مرة ، على حافة « صهريج القيروان » جلست اذن نفيسة التلمسانية ، وبولس سادو يتبادلان المعلومات ويتناقشان ويتجادلان في خصائص الاعشاب ، وما تحويه من بلاسم شافية للعلل والامراض ..

وكانت حافة الصهريج ملتقى القبروانيين في نزهاتهم ، فانهم كانوا يخرجون من دورهم ومن مراكز اعمالهم في كل مساء ، ويمرحون في الحدائق والبساتين والرياض ، ينعمون بالنسيم المنعش ومنظر الخضرة وحرير المياه ، بين الاشجار والقنوات والنوافير ، يقطفون من الائمة اشهاها ، ومن الازهار أجملها ، ويمقدون المجالس حلقسات حلقسات ه هنا يتناقشون ويتجادلون ، وهناك يفنون ويطربون ، وهناك يستلقون على الحشائش مرتاحين مطمئنين .

كانت الحياة في ظل حكم الاغالبه هنيئة هادئة ، مفعمة بالعمل الصالح ، والاطمئنان الى الغد . وكانت افريقية دولة عربية زاهرة ، تجلب الخير لنفسها وتوزعه حولها ، وكان أبو ابراهيم الاقلب ملكا سعيدا بسعادة شعبه ، وكان شعبه سعيدا بسعادة ملكه !

وظل الطبيب الافرنجى اياما واسابيع يطوف مع زميلته العربية، يزيدها علما وتزيدة معرفة ، وفي مساء كل يوم ، يجتمع الاثنان على حافة الصهريج ، لاستعادة اختبارات يومهما ، وابتكار لون جديد من اللون الملاج والمداواة ..

وفي ذات يوم ، بعد مساء مضمّن وطواف طويل ، جلس الاثنان كمادتها على الحافة المعهودة ، وجعلا يتناولان الطعام ، مما أعدته نفيسة من زاد ..

وجنح بهما الحديث عن سيره المعتاد ، عن الطب والاعشاب والعلاج ، الى أسرتهما وأسرته ، الى ماضيها وماضيه .

وداخلهما القلق والاضطراب في خلال الحديث ، وكلما توفلا فيه زاد الاضطراب وزاد القلق .

سألته عن اسمه ، فروى لها ما يعرفه عنه . وسألها عن اسمها فروت له ما تعرفه عنه ..

تحدث عن الأندلس ، وعن خروج جده منها ، وتحدثت عن بلاد الافرنج وعن خروج جدتها من مرسيليا ...

وقال لها ان اسم جده « وهب السعدى » وأن هذا الاسم قد تطور وتحول على السنة الافرنج وأصبح « سادو » . وقالت له ان امها ذكرت لها وهى صغيرة ذلك الاسم أكثر من مرة !

وتكشفت لهما الحقيقة شيئاً فشيئاً، وتجلت أمام أعينهما تفاصيل المأساة ومراحلها مرحلة بعد أخرى !

لم يكن « وهب السعدى » غير زوج الأفرنجية التى خرجت من مرسيليا واستوطنت الأندلس . ولم يكن « بولس سادو » غير حفيد ذلك الطبيب الأندلسى الذى فر من وجه العدالة بعد اقتراف جريمته، تاركا زوجته وطفلتها فريسة للأقدار ...

نعم ، ان « بولس » حفيد ذلك العربى الذى تخلى عن وطنه وعن قومه وعن دينه ، ونفيسة حفيدة تلك الأفرنجية التى تخلت عن وطنها وعن قومها وعن دينها !

وها هى الظروف القاسية ، والأقدار اللامبة بالمصائر ، تجمع فى مكان واحد ، فى أرض أفريقية ، على حافة صهريج القيروان ، بين حفيد الطبيب العربى المسلم ، وحفيدة الطبيبة الأفرنجية المسيحية ، وقد أصبح الحفيد أفرنجيا مسيحيا ، وأصبحت الحفيدة عربية مسلمة !

لم يعد الطبيب بولس سادو فى تلك الليلة الى قصر الأمير الأغلبى الذى استضافه . ولم تعد نفيسة التلمسانية فى تلك الليلة الى كوخها فى ظاهر القيروان ..

وفى صباح اليوم التالى ، فى صيف تلك السنة ، سنة ٢٤٩ هجرية الموافقة لسنة ٨٦٣ للميلاد ، وجدت جثتان طافيتان على سطح الماء الصافى ، فى صهريج القيروان ! ..

فهل أقدم الطبيب والطبيبة على الانتحار عمداً بالقاء نفسيهما فى اليم ؟ وهل استبد بهما وخز الضمير ، واعتبر كل منهما أن أسرته ملطخة بعار الخيانة ، خيانة الوطن ، وخيانة العشيرة ، وخيانة الدين ؟ وأن العقاب الذى يرضاه الضمير ، ويرتاح اليه ، هو الموت المتعمد . فوضع الاثنان حداً لحياتهما ، وقطعا بأيديهما ذلك الخيط الذى ربط أبو ابراهيم الأغلب طرفيه مدفوعا بعطفه على العلم والعلماء ١٩

أم أن سنة من النوم قد أخذت الطبيب والطبيبة ، بعد أن امتد بهما المقام ، وطال بينهما الحديث ، ولعبت بأعصابهما الشجون ، فاستلقيا على حافة الصهريج ، وسقطا فى الماء عن غير عمد ، وغرقا فى سكون الليل ، بينما كانت القيروان كلها غارقة فى نومها ؟

أمر أبو ابراهيم الأغلب أن يدفن الطبيب والطبيبة فى مكان واحد .

ولكنه أوفد الرسل الى بلاد الغرب ، وساعده الظروف على كشف الستار من حقيقة « بولس سادو » أو « بولس السعدى » قبل أن توافيه المنية ..

فقد مات أبو ابراهيم في السنة نفسها التي غرق فيها بولس ونفيسة ، واحتفظ في مكتبته في « القصر القديم » بالمخطوطات التي تركها الاثنان ، ودونا فيها نتائج دروسهما وأبحاثهما الطبية .

وقد نقل جزء كبير من مكتبة الأغلبية الى « فاس » بالمغرب الأقصى ثم الى الأندلس في القرون التالية ، وترك بعض مخطوطاتها في أسبانيا، بعد خروج العرب من الفردوس المفقود . وقد يمشر الباحثون على فوء منها ، لو امتدت أيديهم الى مخابء قصر « اسكوريال » على مقربة من مدريد عاصمة أسبانيا اليوم حيث تكدست خزائن الكتب العريبة الأندلسية ، في أقبية تحت الأرض ، لا تزال فيها الى أيامنا هذه !



## نخلت مراكش

« نخلت » ذهبت من الشام  
الى المفسرب ، ودفنت بين  
«أفنجيل» في مدينة مراكش ،  
بعد أن جلبت السعد للبلاد  
وأهلها .





بجوار مسجد الكتبية بمدينة مراكش ، وفي ظلال المئذنة البديعة التي تعد آية رائعة من آيات الفن المعماري والهندسي في الاسلام ، يجثم ضريح خال من مظاهر البذخ والعظمة ، ولكنه يضم رفات بطل ملأ اسمه الدنيا وطبق في عهده الافاق : يوسف بن تاشفين .

وخارج اسوار المدينة ، بين أشجار النخيل المتراسة كانها كتائب المجاهدين تتأهب لرحف رهيب وفتح قريب ، قبر آخر ، ضاعت معالمه ، ويصعب على الباحث العثور عليه : ذلك القبر يضم رفات امرأة كان لها في حروب ابن تاشفين نصيب ، وفي انشاء مدينة مراكش فضل كبير : « نخلة اللمعية الشامية » التي عرفها رفاق الفاتح العظيم من أبطال « المرابطين » باسم « نخلة مراكش » والتي تنفخ الافئدة والافئدة بذكرها العطر بلا شك ، كلما داعب النسيم سعف النخيل او عصفت بها الرياح في سهل « المدينة الحمراء » .

مشى أبو بكر بن عمر اللمتوني ، أمير الملتجين ، وعميد الاشياخ المرابطين ، من الجنوب حيث كانت قبائل البربر تضرب مضاربها ، الى الشمال حيث المدن والقرى والمزارع والحقول . وحالفه النصر من مرحلة الى مرحلة فبسط سلطانه على البلدان الممتدة في محاذة جبال الأطلس وبين شعابها ووديانها ، ولكن ظروفنا قاهرة أرغمت القائد الموفق على العودة أدراجه من حيث أتى ، فالتقى بمقاليد الامور الى ابن عمه يوسف ابن تاشفين ونادى به قائدا للبربر وعميدا لاشياخ المرابطين ولقبه بأمر المسلمين ، فكان يوسف عند حسن الظن به ، وجديرا بتأدية الرسالة التي وضعها ابن عمه أبو بكر امانة في عنقه .

قرر يوسف اذن مواصلة الزحف شمالا ، وفي آن واحد انشاء سلسلة من القلاع والحصون والمدن ، وترك حاميات فيها ، واقامة حكم المرابطين على أسس قوية ودعائم ثابتة ، وأخيار مكان صالح لبناء عاصمة للدولة الجديدة التي لم يشك القائد لحظة واحدة في انها ستبسط سلطانها على المغرب كله .

وكان يوسف بن تاشفين يعتمد في أعماله الحربية على رهط من

رفاقه في الجهاد ، وثق بهم ووثقوا به ، وجعل منهم مستشاريه في كل كبيرة وصغيرة ، بل جعل منهم ما سمي فيما بعد ، بلفة الجيوش ، هيئة « أركان الحرب » التي يعتمد عليها كل قائد .

أما الشخص الذي كان يوسف يستشير أكثر من غيره ، ويعمل برأيه أكثر من غيره ، فامرأة رافقت المرابطين في غزواتهم الموفقة منذ اللحظة الأولى ، ونظروا إليها جميعا نظرة زعيمهم ، فاعتقدوا فيها القدرة على استطلاع الغيب والقراءة في صفحة القضاء ومعرفة ما يخبئ الغد من مراقبة الطيور في روحاتها وهجراتها ...

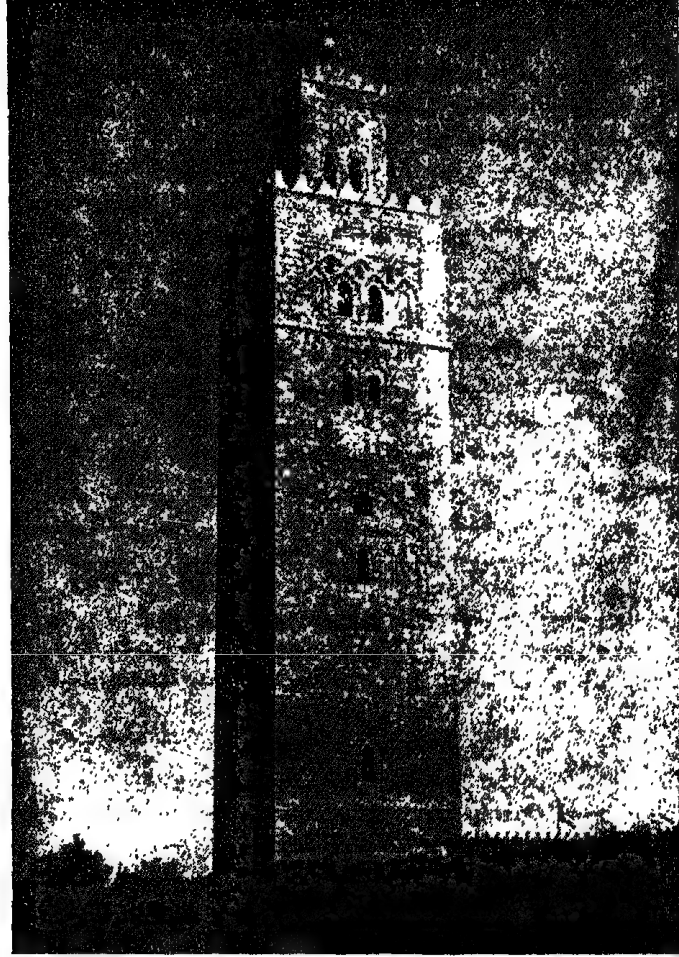
هذا ما كان يعتقده يوسف بن تاشفين ورفاقه ، وزادوا عليه اعتقادهم في قرارة أنفسهم أن « نخلة الدعية السامية » تجلب لهم الخير وتضمن لقائهم النصر ما دامت ملازمة لهم في أسفارهم وحروبهم وفترحاتهم . فهي في نظر يوسف وفي الواقع ، عرافة لا تخطئ ، ونميمة لا يفارقها السعد .

ونخلة بنت رجل شامي يدعى « فهد اللمى » جاء إلى المغرب مع الحجاج المرابطين ، واستشهد في حروبهم ، وماتت زوجته تاركة وحيدتها « نخلة » وديعة بين يدي أبي بكر بن عمر اللمتوني ، فأنقذها يوسف بن تاشفين ذات مرة من مخالب ذئب هاجم المضارب في خلال رحلة من رحلات القبائل البربرية عند تخوم شنقيط . وأقسمت الفتاة أن تعيش في كنف منقذها وتقف نفسها على خدمته ، وأن ترافقه في حروبه وتشاركه القتال وتخوض ثمار المعارك على ظهور الأبل والمهاري ، ككل محارب من أبناء القبائل ...

هذا ما عرفه عنها أولئك الرجال الأشداء الذين قادهم أبو بكر ابن عمر أولا ، ثم يوسف بن تاشفين من بعده ، إلى فتح الأقطار والأمصار ، واخضاع الحضر والبدو من سكان المغرب ..

عرفوا اسمها . وعرفوا وايقنوا أنها عرافة تنبئهم بما يخبئ لهم الغد . وجلابة للسعد لكل من يلمس ثوبها أو يرافقها في سفر أو في حرب ...

وأحببتها « زينب » زوجة يوسف بن تاشفين كما أحبها زوجها ، بل أرادت الزوجة أن يتخذ زوجها القائد المنتصر تلك الشامية الفتية الحسناء خليلة له وزوجة تشاركها قلبه . ولكن نخلة نفسها رفضت أن



صومعة « الكتبية » بالمسجد الكبير -  
بنيانة يوسف بن تاشفين بمراكش

يسبغ عليها منقذها وسيدها ذلك الذى كانت تعده شرفا لها . فقد قالت لزينب :

— أيتها السيدة المصونة ، ان بقائى عذراء شرط لازم للاحتفاظ بقدرتى على استطلاع الغيب من ناحية ، كما يعتقد الناس ، وعلى جلب السعد لمن يلازمى ، كما يعتقد زوجك على الخصوص . فنخلة اللمعية لن تتخذ لنفسها بطلا من الرجال . وفى اليوم الذى يحدث فيه هذا ، تفقد نخلة تلك المزايا التى تتمتع بها ، وتلك الصفات التى تجعلكم جميعا تحبونها وتحترمونها وتحافظون على حياتها .

ويوم القى ابو بكر بن عمر بمقاليد الجيش الزاحف الى ابن عمه يوسف ، قالت نخلة للقائد الجديد :

— ان غداك يا يوسف لمفعم بالعظام والكبائر ! . نحن الآن فى مكان كان الأقدمون قد اتخذوه مقرا لآلهتهم ، وهيكلا لأصنامهم ، ومسرحا لأعبادهم وأفراحهم ، واننا نرى حولنا آثار تلك العصور الخوالى ، التى كانت فيها شعوب انقرضت الآن تحكم هنا وتسود . وفى هذا المكان ، أرى أن تنشأ أول مدينة تحمل طابعك وطابع القوم الذين تتولى قيادتهم الى النصر .

وسال يوسف :

— أرجو يا نخلة أن تتصفحى ما تنصحنى به الكواكب والنجوم ، وان تنبئنى بالاسم الذى يجعل بنى أن أطلقه على المدينة الجديدة ، وهل أجعلها عاصمة ملكى أم مرحلة من مراحل الزحف الى الشمال ؟

وفى اليوم التالى ، جاءه الرد :

— يوسف ، أطلق على مدينتك اسم « تماركش » وشيد بيوتها وأسوارها من الحجارة الحمراء ، وأجعل فى وسطها مسجدا جامعاً تشرف مثلنته على السهول المحيطة بالمدينة العتيقة التى يجدر بك أن تعدها من الآن عاصمة دولتك .

— وهل اترك السهول جرداء كما هى الآن ؟

— كلا . بل سوف نجىء اليها بالآلاف من فسائل النخيل ، من الغابات الجنوبية التى نشأت وترعرعت فيها عشائر البربر .

ونفذ يوسف نصيحة العرافة . ولكنه اشترط عليها ان تظل

ملازمة للعمال والصناع والبنائين الذين عهد اليهم الفاتح في انشاء عاصمته الجديدة . فقد قال لها :

— يجب ان يظل السعد مخيما على المكان حتى تصبح المدينة امرا واقعا . فملك يا نخلة أن لا تنتقلي من هنا ، وأن تضمني ببقائك في تمراكش نجاح الاعمال وسيرها بسرعة ...

وهذا ما حدث !

فقد اشرفت نخلة على وضع الرسوم والتصميمات وتخطيط الطرقات والازقة ، وحفر القنوات وجرى المياه من الينابيع والجداول الى داخل المدينة ...

واشرفت بصورة خاصة على نقل فسائل النخيل من أقصى الجنوب ، وغرسها حول المدينة لكي تنمو في الوقت الذي تشيد فيه المساكن والدور الرسمية والمساجد وتكنات الجيش ...

كل ذلك تم في سنة واحدة : ٤٥٥ هجرية ، الموافقة لسنة ١٠٦٢ للميلاد .

نبئت المدينة في الصحراء بقدرة قادر ، وأحاطها يوسف بن تاشفين بسور من الحجر الاحمر ، وفرش أرضها بالرمال الحمراء ، وسماها بلغة البربر « تمراكش » وهو الاسم الذي حرفته الألسنة على كر الأيام فأصبح « مراکش » وظل اسم القطر كله الذي كانت المدينة المرابطية عاصمة له ، المغرب الاقصى ...

المدينة التي تمتد حولها السهول الخضراء بنخيلها الذي لا حصر له ، والذي يرجع الفضل في غرس فسائله الاولى الى صديقة الفاتح ورفيقتة في فتوحاته ، نخلة اللصحية الشامية ...

المدينة التي قدر لها ان يبلغ عدد سكانها في أوج عظمتها اكثر من نصف مليون ساكن . والتي شبهها الاجانب الذين زاروها بياقوتة ضخمة حمراء ، وسط حقل من الزمرد الاخضر ، لشدة حمرتها عندما تنصب عليها اشعة الشمس ، ولهباء خضرتها المتماوجة عندما تلعب الرياح بسعف النخيل في الغابات المتراصة الاطراف ...

ووراء كل عمل أقدم عليه يوسف بن تاشفين ، في ميدان الحرب أو في مضمار الانشاء والتعمير ، رأى للمرأة التي كان يعتقد فيها القدرتين ، قدرة معرفة الغيب وقدرة جلب السعد ...

كانت نخلة اللعينة مع القائد يوم دخل مدينة فاس فاتحا . وكانت معه يوم قفز من المغرب الى الاندلس ، لنجدة المعتمد بن عباد وهزم الافرنج في وقعة « الزلاقة » التي دمر فيها المحاربون الاسبانيون اذ راوا للمرة الاولى الهجن الخفيفة السريعة تخوض الميادين بجانب الخيول المطهمة .

وكانت نخلة اللعينة مع القائد المظفر في جميع المراحل التي اجتازها يوسف بن تاشفين في اقامة ملكه وانشاء دولة المرابطين التي امتد سلطانها من اسبانيا الى اطراف الصحراء الكبرى ...

وكان يوسف بن تاشفين بجانب نخلة اللعينة الشامية ، يوم اشتدت عليها وطأة الحمى ، فماتت تدعو للمرابطين بدوام العز والنصر . . . كان ذلك في سنة خمسمائة للهجرة ، الموافقة لسنة ١١٠٦ للميلاد ، بمدينة مراكش التي اشرفت المرأة على انشائها .

ونفذ يوسف بن تاشفين رغبة العرافة الاخيرة فأمر بان تدفن في ظلال النخيل ، على مقربة من الاسوار الحمراء .

وفي السنة نفسها ، لحق يوسف بن تاشفين بالمرأة التي كان يعتقد اعتقادا راسخا ان بقاءه مرتبط ببقائها ، وان موته لابد ان يتبع موتها . .

ودفن ابو يعقوب يوسف بن تاشفين ، أمير المسلمين ، وأمر المؤمنين ، وشيخ المرابطين ، في الضريح الذي اُصده لنفسه ، بجوار المسجد الاكبر الذي بناه في عاصمة ملكه ، وعرف باسم الكتبية .

فرون مضت على وفاة الفاتح العظيم ، وضريحه باق في مكانه . وأما ضريح العرافة التي اكرمها وكانت له وفيه ، فقد طقت عليه الرمال ووطئه جدوع النخيل بين اذرعها العديدة فاخفت معالمه . .

ولكن اشجار النخيل باقية ، تتكاثر يوما بعد يوم ، وتتمتع عند الغروب اسم « النخلة » التي جاءت من المشرق الى المغرب ، من الشام الى مراكش لتستطلع الغيب وتجلب السعد !

# غادة الدير

---

كرمت خطيبها الجبان ،  
فأثرت عليه مدوه الشجاع ،  
وانتقلت من بيته الى بيته !





لم يلق الحاكم فى ذلك اليوم طعام الراحة ، ولم يغمض له فى الليل  
جفن : فالأخبار التى حملها اليه الرسل الذين أوفدهم للاستطلاع ، زادت  
مخاوفه ، وأكثرت له صحة الإشاعات التى توالى على الحصن الذى يقيم  
فيه ، والقائلة بأن قوة من المغاربة فى طريقها اليه ..

كان ذلك المكان من ساحل المغرب الأقصى ، على بحر الظلمات ،  
مقصد الصيادين لوفرة السمك فى مياهه ، وصلاحية شاطئه لرسو  
السفن ، وتفريغها ، أو لاحتوائها من الأمواج الهائجة ، يوم تهب العواصف  
وتشتد الرياح .

وكان جميع الصيادين الذين يتصدون ذلك المكان المحظوظ ، أو  
معظمهم ، من البرتغاليين . فالأسطول البرتغالى كان مسيطرا على البحار  
تجاه السواحل الأفريقية ، وكان له فى بعض أنحاء المغرب ثغور يأوى  
اليها ، وقلاع تحمى الثغور ، وحاميات تقيم فى القلاع !

طلب الصيادون البرتغاليون من ملكهم أن يضيف الى تلك الحاميات  
حامية . والى تلك القلاع قلعة ، والى تلك الثغور ثغورا . فأجابهم الى  
طلبهم ، وأنشأ لهم حصنا فى المكان الذى اختاروه ، أطلق عليه اسم  
« سانتا كروز » أى « الصليب المقدس » وجعل له حامية بقيادة حاكم  
من قواد جيشه ، ودعا الصيادين الى إقامة أكواخ وبناء منازل على  
شاطئ البحر ، فى حماية الحصن المنيع .

ومرت أعوام ، والحصن والبلدة فى أمان ..

ولكنه امان لم يدم طويلا !

فى داخل المغرب ، كان « السعديون » قد بدءوا ينشئون دولتهم ،  
بعد أن أدرك الانحلال دولة « المرينيين » وكان الشريف أبو عبد الله  
محمد الشيخ ، الملقب بالمهدى ، قد اقتطع لنفسه إمارة فى « تارودنت »  
ناحية الجنوب ، وعمل بجهد ونشاط لتوسيع رقعتها . وتأمين أطرافها .  
تطلع الى الساحل فاذا به يجد الثغور البرتغالية وقلاعها  
وحامياتها ، تمتد فى حلقات تكاد تكون متواصلة ، من شمال المغرب فى

طليجة ، الى جنوبه فى سانتا كروز . فقرر التخلص من أولئك الاغراب ، فى الاماكن التى يحتلونها بجوار امارته . . . وجعل سانتا كروز هدفه الاول . . .

وكان ذلك فى سنة ١٥٣٦ للميلاد ، الموافقة لسنة ٩٤٢ للهجرة . كان يقود الحامية ، ويحكم البلدة ، فى ذلك الوقت ، رجل ذو ماض مجيد ومواقف فى الحروب مشرفة : التبيل جوتيريز دى مونروى . وكانت تقيم معه فى الحصن ابنته الوحيدة « فرانشيسكا » التى خطبت لشاب من اقارب اسرتها ، ضابط فى الجيش ، اختاره والدها ليحل محله فى قيادة الموقع اذا حدث ما يضطره الى التخلي عنه .

واقترب الموعد المحدد للزواج ، وجعل سكان البلدة وجنود الحامية يعنون انفسهم باقامة مهرجان وقضاء بضعة ايام فى فرح ومرح، فى تلك المناسبة السعيدة .

وقرروا ان يقدموا للعروس مغطا مصنوعا بأيدي نساءهم ، هدية يوم زواجها .

وحدث ما لم يكن فى الحسبان !

تلقى الحاكم تلك الاخبار المقلقة عن قرب زحف المغاربة على موقع سانتا كروز ، فأنذر السكان بالخطر القادم . واعد العدة للصمود ، وأوفدوا بيدرو خطيب ابنته رسولا الى الملك لطلب النجدة . . .

وتولت الفتاة نفسها تدريب النساء على الاشتراك مع الجنود والسكان فى أعمال الدفاع . وما مرت ايام حتى كان كل شئ فى الموقع الحصين قد تغير ، وحتى كانت طلائع القوة المغربية الزاحفة قد بدت من بعيد . . .

وبدأ الصراع بين الطرفين . . .

كان القتال مريرا . . .

الشريف محمد المهدى قائد محنتك ، وقد رسم لنفسه خطة صمم على تطبيقها بحدافها ، للسيطرة على الساحل الجنوبى من البلاد المغربية ، ثم الانصراف الى بسط سلطانه على قلب البلاد وشمالها . ولا بد له من تنظيف الشناطىء من القواعد البرتغالية ، وفى مقدمتها سانتا كروز .



الكدير ...  
دمورها الزلازل في سنة ١٩٦٠

وجوتيريز دي مونروي خصم عنيد ، أقسم للملك بأن يحتفظ له  
بالحصن المنيع ، الواقع في طرف السلسلة الطويلة من الحصون المشيدة  
على الساحل . وهو عازم على البر بقسمه .

تجلت البطولة الحقّة من الجانبين ...

كان الهجوم عنيفا ، وكان الدفاع رائعا !

وبدا جوتيريز يشعر بأن الكفة راجحة لصالحه خصمه . وأن  
الصمود لن يطول إذ لم يعد « بيدرو » بنجدة من الرجال والعتاد ، قبل  
فوات الوقت ..

وكانت فرانثيسكا ، أثناء الحصار ، وكلما اشتدت وطأه ، تبذل  
جهدا في استنهاض همم الرجال وتقوية الأمل في نفوس النساء ، مرددة  
بلا انقطاع ومؤمنة بما تقول : « سوف يصل بيدرو قريبا ، عائدا من  
الشمال ، ومعه النجدة التي نرجوها ! .. »

ولكن الايام والليالي تمر متتابعة ، ويبدرو لايعود ، والحصار  
حول الحصن ساعة بعد ساعة ...

الاصابات بين رجال الحامية كثيرة ... المؤن تنقص يوما بعد يوم  
... النجذات لا تصل الى البرتغاليين بل تصل الى المغاربة .. الهجوم  
يشند والدفاع يضعف ...

وحل الموعد الذى حدده الشريف السعدى للوثبة الكبرى ، لاخذ  
الحصن عنوة بعد أن فتح الحصار لفرقة فى الاسوار ، وزعزع الثقة فى  
نفوس المدافعين ...

عند الفجر ، تحرك المغاربة الى الامام وفى طلبعتهم الشريف قائدهم ،  
وحوله حاملو الاعلام وضاربو الطبول ، وتصاعدت فى الجو صيحات  
الحرب من الجانبين ، ودخل الصراع فى مرحلته الفاصلة !

أصيب جوتيريز دى مونروى بجرح فى كتفه ، وهولت ابنته  
فرانثيسكا لاسعافه وعلى وجهها فى آن واحد امارات القلق وعلامات  
الارتياح ، وقالت بصوت ارادته ان يكون نابت النبرات :

— أبى ! .. أبى .. أرى قلوب سفينتين فى الأفق القريب .. يبدرو  
.. يبدرو عائد الينا بالنجدة المرجوة .. أبشر .. أبشر يا أبى فان  
الحصن لن يسقط فى قبضة الاعداء !

واصل جوتيريز اداء مهمته بالرغم من الجرح الذى اصابه والذى  
لم يكن على جانب من الخطر ولكن الجهود التى بذلها ، والشجاعة التى  
تجلت فى رجاله ، وقوة الارادة التى تحلت بها فرانثيسكا وصوبجياتها  
من النساء ، كلها ذهبت سدى ولم تنقل الحصن من مصيره المحتوم !

تمكن المغاربة من اقتحام الاسوار ، فتسلقوا بعضها ، وهدموا  
بعضها ، ووقعت فى الداخل مذبحه رهبة ..

وتطلعت فرانثيسكا الى مياه البحر ، حيث كانت السفينتان  
تتهاديان على مقربة من الشاطئ ، فاذا بها تلاحظ أمرا لم تكن تتوقعه !

رأى يبدرو ، بعد أن أصبح فى مواجهة الحصن ، أن المغاربة  
متفوقون على البرتغاليين ، وأن الدفاع قد انهيار ، وأن جماعة من  
المهاجمين قد استولوا على المراكب الصغيرة الراسية على شاطئ البلدة ،  
وانطلقوا بها فى اتجاه السفينتين .

## تردد الشاب ..

وأدرك أن نزوله مع نجلته إلى البر قد أصبح متعسلا ، أو  
محفوفا بالخطر فلم يقدم على مفامرة قد يكون الهلاك نصيبه منها !  
ولما ارتفعت على الأبراج أعلام الشريف السعدى ، أصدر بيدرو  
أمره إلى السفينتين بالعودة إلى الورااء ...

فطنت فرانسيسكا إلى هذا الذى حدث ، وصاحت بلا وعى ،  
وبصوت تخنقه عبرات الفيظ : « جيان ! .. جيان ! .. »

خطيبها يهرب من المعركة قبل أن يخوضها ... وأبوها جريح  
يوصل قتالا لا أمل فيه .. وجنود يستقون حولها قتلى أو جرحى ..  
ونساء دب الرعب فى نفوسهن فهربن إلى السرايب يختبئن فيها ...  
صاحت الفتاة : « أبى ! .. أبى ! .. ضع حدا لهذه المجزرة ..  
فقد وفيت ما عليك ، وقاومت ما استطعت .. وضميرك مرتاح ...  
فلا عار عليك إذا استسلمت ! »

فطلب جوتيريز دى مونروى الكف من القتال ... وعرض على  
الشريف محمد المهدي هدنة يتم بعدها تسليم الموقع بما فيه !  
كان النصر حليف المغاربة فى ذلك اليوم ، فقد قتل معظم المدافعين  
عن الحصن . ووقع الأحياء فى الأسر ، وأصبح موقع سائتا كروؤ غنيمة  
للمنتصرين ...

وقال الحاكم البرتغالى لمحمد المهدي : « أنا وابنتى بين يديك .  
فافعل بنا ما تشاء ! »

وأجاب الشريف السعدى : « انت حر طليق . فقد كنت فى دفاعك  
عن الأمانة التى كانت فى مثقك بطلا شجاعا .. والبقية الباقية من  
رجالك ومن سكان البلدة أحرار أيضا ... فاذهبوا إلى حيث تريدون  
... أما ابنتك ، التى شاهدت بطولتها فى القتال كما شاهدت بطولتك ،  
فهى حرة بأن تلحق بك .. أو بأن تبقى معنا ... »

دهش القائد البرتغالى مما قاله خصمه المفربى . وردد قائلا :  
« ابنتى ... تبقى معكم ؟ .. »

وأجاب محمد المهدي : « نعم ... تبقى إذا أرادت ... زوجة  
لى ! » .

وفوجيء جوتيريز بابنته تجيب بنفسها على ما عرضه الشريف  
السعدى : « أبى ! .. اذهبوا انتم .. أما انا ، فبأقية هنا .. راضية  
بأن أربط مصرى بهذا السيد المخرى الذى انتصر علينا .. سعيدة بأن  
أبتعد عن الرجل البرتغالى الذى جبن من خوض المعركة ، وفر من  
الميدان ، ونخان الوطن والاهل والحب ! »

كرهت الفتاة فجأة الشاب الذى كانت من قبل قد وقفت له  
حياتها ووهبت قلبها . فرضيت بما عرضه الشريف على أبيها، وامتزمت  
منذ تلك اللحظة أن تستبدل وطناً بوطن ، وقوماً بقوم ، وأهلاً بأهل !

رحل البرتغاليون عن سانتا كروز حائدين الى بلادهم ..

وكان الوداع مؤثراً بين الفتاة الباقية، والدها الحزين، ومواطنيها  
المغلوبين على أمرهم ...

وأرادت النساء أن تحفظ فرائشيسكا لهن مودة تذكرها بماضيها  
فقدمن اليها المعطف الذى أهدته لها هدية ليوم عرسها ..

طلبن منها أن ترتديه يوم يتم زواجهما ، بعد أن لعبت الاقدار  
بمصريها ، ومصر خطيبها البرتغالى .

فوعدت بأن تفعل ذلك . وبأن تذكر صانعات المعطف بالخير في  
حياتها الجديدة ...

واتخذ الشريف السعدى محب المهدى الفتاة فرائشيسكا ابنة  
جوتيريزى دى مونروى زوجة له ...

وأمر بإعادة بناء الحصن وتسليم البلدة الى الصيادين المخاربة  
الراغبين فى الإقامة فيها ..

وجعل للحصن حامية تصونه وترعاه ...

وأطلق على البلدة وعلى الحصن اسماً جديداً، فعرفت سانتا كروز  
منذ ذلك الوقت باسم « اكدير أرهير » ومعنى هذا الاسم بلقة البربر  
سكان الجبال المجاورة « قلعة التل »

وفى سنة ١٥٤٣ للميلاد ، الموافقة لسنة ٩٤٩ للهجرة ، تولى

الشريف السعدي محمد الشيخ المهدي الملك في المغرب ، فكان الثاني  
من السلاطين السعديين ..

أما البلدة التي غير اسمها ، فقد درج الناس على تسميتها فيما  
بعد « اغادير » وهي التي دمرها زلزال عنيف في التاسع والعشرين من  
شهر فبراير سنة ١٩٦٠ - الموافقة لسنة ١٣٧٩ للهجرة ، فاستقر الملك  
محمد الخامس العلوي أعاده بنائها ...





## معركة الملوك الثلاثة

---

اصفت المرأة لصوت الحب ،  
ومات حبها وحققها في معركة  
قتل فيها ثلاثة ملوك !



ظل أبو عبد الله لحظات مفكراً صامتاً ، ثم رفع رأسه ، ومد يده  
مداعب جدائل المرأة الجائبة أمامه ومر بأنامله على الجبين الوضاح ، وأخذ  
الأمس ، فرمقته ببياتريس بنظرات تنم في آن واحد عن حب وحقد ، وعن  
رجاء في أن يجيبها إلى ما طلبته منه ...

أنها تحبه ...

أنها تحقد على أعدائه ...

أنها تريد انتقاذه من المأزق الذي أوقع نفسه فيه ، لأن في انتقاذه  
فوزاً لحبها ، وأرضاء لحقدتها .

وقال أبو عبد الله :

— سأفكر في هذا يا صديقتي ... وسأوافيك بالرد غداً بإذن  
الله .

ولكنها أمسكت بكتفيه وهزتهما بشيء من العنف ، وصاحت قائلة:

— كل يوم يمر على هذه الحالة يزيدنا تعقيداً ويفقدك فرصة قد  
لا تعوض ... ذهني أذهب يا محمد ! ذهني أفل ما مرضته عليك ...  
فلا سبيل إلى الخلاص إلا بهذا ...

فمسكت أبو عبد الله لحظة أخرى ، ثم تنهد قائلاً :

— اذهبي ، على بركة الله !

وخرجت بياتريس مهرولة من الحجرة التي حبست نفسها فيها  
ساعة كاملة لاتنازع صديقها بالموافقة على الخطة التي رسمتها له ،  
وأسرعت إلى مراح الخيل فامتطت فرساً أصيلة ، وانطلقت بها تقطع  
الفيافي والجبال .

إلى أين ذهبت ؟ ومن هي ؟ ومن هو ؟ وماذا تريد الفارسة العجيبة  
أن تفعل ؟

هو مولاي أبو عبد الله محمد المتوكل ، السلطان الذي اعتلى عرش المغرب بمدينة فاس سنة ١٥٧٣ ميلادية ، الموافقة لسنة ٩٨١ للهجرة خلفا لأبيه ، ولكنه فاز بالعرش دون أن يفوز ببسطة العلماء ، ورضى أسرته ، ومحبة شعبه .

وما أن مرت شهور على اعتلائه العرش ، حتى هب صم أبو مروان عبد الملك لأقصائه عنه ، فتم للعم طرد ابن أخيه من العاصمة ، ونادى بنفسه سلطانا ولقب بالمعتصم . واضطر أبو عبد الله محمد المتوكل الى الهرب فلجا الى مدينة مراكش .

أما هي ، المرأة ، فأسيرة برتغالية عاشت في كنف الاسرة السعدية المالكة ، وتونقت عرى الصداقة والمحبة بينها وبين محمد ، فرفضت الحرية يوم أراد السلطان ، وأراد أبوه من قبله ، إطلاقها من الأسر ، وآثرت البقاء في فارس ، على العودة الى قومها ووطنها البرتغال .

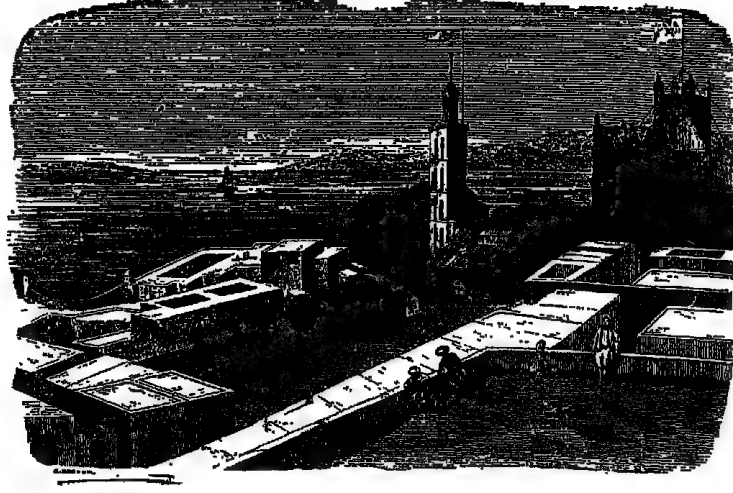
وأما ما عرضته على صديقها في ذلك اليوم ، بعد أن قلب له الدهر ظهر المجن ، وأحاط به الخطر الداهم ، فأوشك أن يفقد الحياة بعد أن فقد العرش ، فهو أن بلجا الى البرتغال ، ويستعين بالملك سباستيانو الجالس على مرثه في لشبونة ، ويحالفه على عمه عبد الملك ، ويتعاقد معه على العمل معا ، هو في سبيل استرجاع الملك ، والملك البرتغالي في سبيل الاحتفاظ بممتلكاته على سواحل المغرب ، وتوسيع رقعتها بعد النصر .

تردد أبو عبد الله في بادئ الامر ، ولكن حب السلطة ، والرغبة في الثأر من عمه ، والخوف من فقدان الثروة والجاه ، كل ذلك دفعه الى قبول ما عرضته عليه بياتريس البرتغالية ، فأذن لها بأن تسبقه ، على أن يلحق بها بدون إبطاء .

ولحق بها . والتقى الاثنان مع فريق من الاموان عند الساحل بالقرب من طنجة ، وركبوا البحر ميممين شطر البرتغال .

وهناك تعاقد السلطان الهارب من المغرب ، مع الملك الطامع في احتلال المغرب ، على العمل معا في سبيل الهدفين : السلطان المغربي لاسترجاع عرشه بمساعدة الملك البرتغالي ، والملك البرتغالي لضمان سيادة البرتغال على السواحل المغربية بما فيها من ثغور .

وعلم عبد الملك ، في عاصمته فاس ، بما تم بين ابن أخيه الهارب منه ، وسباستيان الذي أجاره ، فأوفد من يعرض على الملك البرتغالي



صورة قديمة لمدينة طنجة ،  
على الساحل القريب ، تجاه  
الساحل الاسباني

شروطا مغرية ، لعله على التخلي عن حليفه ، وعدم المجيء الى المغرب على  
رأس حملة عسكرية للغزو والفتح .

غير أن ملك البرتغال ، وهو شاب في مطلع العقد الثالث من العمر ،  
داخله الزهو والغرور ، لما رأى سلطانا يلجأ اليه ، وآخر يتملقه بالوعد ،  
فطرد رسل مبد الملك ، وأصدر في الحال أوامره بتعبئة الجيش  
والاسطول ، واعداد العدة للحرب والقتال !

وفرحت بباريس بما لقيته مساعيها من نجاح ، فقد وجدت  
عروضها آذانا صاغية لدى الملك الشاب ، لأن سياستيان كان يفكر ،  
منذ أن اعتلى العرش ، في الاقدام على مغامرة جريئة للاستيلاء على  
الثغور المغربية . ولما لجأ اليه أبو عبد الله ، بتحريض من المرأة التي  
أحبته ، رأى في ذلك اشارة من الاقدار بأن يقدم في الحال على ما اعتزم  
القيام به ، لأن معونة فريق من المخاربة على الفريق الآخر نعمة سيكون  
لها في سير القتال وبلوغ النتائج وزنها وقدرها .

وأقلعت السفن البرتغالية بالحملة التي أعدةا الملك الطامع ، والتي ضمت ، بخلاف جنوده ، مرتزقة من الالمانيين والإيطاليين والاسبانيين؛ فضلا من أنصار أبى عبد الله الذين التحقوا بالحملة على اثر نزولها الى البر المغربى ، بين طنجة والعرائش .

واستولى الغزاة على هاتين المدينتين بعد قتال شديد .

وظن أبو عبد الله أن الحظ قد هجر صفوف خصومه واستقر في صفه هو ، وظن سباستيانو أيضا أن فتح المغرب بأسره أصبح ميسورا وفي متناول يده ، ما دام النصر قد حاله في المرحلة الاولى من مراحل الحرب العدوانية التي أقدم عليها .

ولكن سباستيانو كان مخطئا في ظنه ، وكان أبو عبد الله محمد المتوكل أيضا مغرورا بنفسه ، وكانت فرحة بياتريس البرتغالية سابقة لأوانها .

فقد أعد مولاي أبو مروان عبد الملك المعتصم ، لمواجهة الخطر الزاحف ، خطة مدروسة مرسومة بدقة وضعها بالإشتراك مع اثنين من نوابغ القواد في ذلك العصر : أولهما أخوه أبو العباس أحمد ، الذى أبده وعاونه ومشى معه الى الميادين منذ اللحظة الاولى التى هب فيها لأخذ العرش من ابن أخيه محمد ، والثانى قائد الفرسان «رضوان» وهو الأوربي التحق بخدمة السعديين بالمغرب وربط مصره بمصر عبد الملك المعتصم .

دارت رحى القتال بين الفريقين ، وتسابعت الايام بين كر وفر ، وتنقل النصر من صف الى صف ، ومن جيش الى جيش ، ولكن الغزاة القادمين من الخارج ، وحلفاءهم من المغاربة أنصار السلطان الطريد محمد المتوكل ، لم يتمكنوا من التوغل في داخل البلاد ، ولم يستطيعوا الصمود الا في المعازل التى أنشأوها وحصنوها واعتصموا فيها على طول الساحل .

وأخيرا ، قرر عبد الملك أن يضرب ضربة قوية أراد أن تكون القاضية ، فعهد الى أخيه أبى العباس أحمد بأن يجمع له ما استطاع من رجال الحرب ومن معدات القتال ، وقصد على رأس جيش ضم كل قواته ، الى حيث كان سباستيانو وحليفه محمد وأنصارهما يرابطون في السهل الممتد حول مدينة « القصر الكبير » .

يقول المؤرخون الافرنج أن عدد المغاربة كان خمسين ألفا . ويقول

المؤرخون العرب ان عدد المغاربة كان فعلا خمسين الف مقاتل ، بينهم اربعة آلاف من الاوربيين الذين التحقوا بخدمة السلطان ، والفين من جنود المدفعية ، ولكن البرتغاليين وحلفاءهم كانوا مائة الف لا ثلاثين الفا فقط ، وكان بينهم بضعة آلاف من الفرسان ، ومعهم ستة وثلاثون من المدافع الضخمة !

وصل عيبد الملك المعتصم الى سهل القصر الكبير ، فاذا به يجد جيش الاعداء مصطفيا فيه استعدادا للقتال، على ضفاف نهرين يخترقان السهل من الغرب الى الشرق ، وقد أحاط نفسه بسور من مركبات للنقل وغصون الاشجار .

وفوجيء المعتصم بمرض أقعده عن الحراك ، ومنعه من أن يتولى بنفسه قيادة المعركة ، ولكنه أمر بأن تصنع له محفة في داخلها قراش ووسائل . فكان له ما أراد ، واضطجع السلطان المريض في ذلك السرير المحمول على الاكتاف ، وأشرف منه على تطور الحالة لحظة بعد لحظة .

عهد الى أخيه أبى العباس احمد بأن يتولى القيادة مكانه ، فنشر احمد جيشه تجاه العدو ، وفاقا لخطة لم يرسمها من قبل بل استوحى تفاصيلها من كيفية انتشار البرتغاليين وحلفائهم في السهل .

وكان المغاربة هم البادئين بالقتال . فقد صبوا نيران مدافعهم على جناحى العدو ، ثم أطلقوا فرسانهم للاقاة فرسانه في الميدان .

كان ذلك في اليوم الرابع من شهر أغسطس سنة ١٥٧٨ ميلادية الموافقة لسنة ٩٨٦ هجرية وأشعة الشمس تسكب حرارتها من الجو فتمتزج بحرارة النيران المنبعثة من فوهات المدافع والبنادق والقذارات .

معركة رهيبة ، جرت فيها الدماء غزيرة من الجانبين ، وصبغت الأرض وحولت مياه النهرين الى أوحال قانية .

تضعضت صفوف الفرسان البرتغاليين فانطلقت خيولهم ترمح في السهل وعلى السفح على غير هدى ، وانطلقت في اثرها خيول المغاربة . في مطاردة ارتوت فيها السيوف والرماح من الخوض في الصدور والنحور .

وجاء دور المشاة بعد دور الفرسان !

كان السلطان عيبد الملك في محفته ، يفتح عينيه لحظة ، ثم يغمضهم

منهول القوى . ولكن امارات الفضة والارتياح كانت مرسومة على وجهه بالرغم من الشحوب الذى علاه .

واقترب رضوان من المحفة لتحية السلطان بالنيابة عن أخيه أحمد ، المتهمك فى اصدار أوامره الى الكتائب الزاحفة لتطويق العدو .

واذا بالقائد يتراجع ، ويسدل ستائر المحفة ، وينادى أربعة من حراسه ، ويأمرهم بأن يسهروا على راحة السلطان ولا يسمحوا لاحد بأن يرفع الستائر عن المحفة .

كان السلطان عبد الملك فى الواقع قد اسلم الروح !

ماتت والمعركة محتدمة . وأراد رضوان أن يخفى الخبر عن الجيش فصاح بأعلى صوته ، وأمر مساعديه بأن يطلقوا الصيحة مثله : « أن مولاي عبد الملك المعتصم يأمر الجيش بالزحف ، والقاء العدو فى مياه النهرين ! »

وهجم الجيش المغربى . وضرب ضربته القاضية بقياة أبى العباس أحمد ، ومعاونته رضوان .

وتشتت الاعداء فقتل معظمهم ، وفر القليلون الباقون على قيد الحياة ، وهم لا يلوون على شىء .

كان النصر تاما كاملا شاملا !

ولكن الموت حصد فى تلك المعركة ردوسر الدين أعدوا المجزرة !

مات أبو مروان عبد الملك المعتصم فى محفته ، قبل أن ينتهى القتال !

وغرق أبو عبد الله محمد المتوكل ، وهو بجناز النهر سباحة طلبا للنجاة من الأسر أو من الموت فى الميدان !

وكان هذا أيضا مصير حليفه الملك سباسينيانو البرتغالى ، الذى جرفه التيار فغرق مثل السلطان الطريد .

وكانت بياتريس البرتغالية قد اشتركت فى انقتال بجانب صديقها المغربى وملك بلادها البرتغالى ، فحاولت ان تنقل الحليفين من الفرق ، ولكنها غرقت مثلهما .



ولما غابت الشمس وراء الافق ، وبدأ الليل يسدل ستره على  
الميدان الرهيب ، كان كل شيء قد انتهى .

الجيش البرتغالى لم يبق له اثر !

وحلفاؤه المغاربة انصار المتوكل القوا سلاحهم وطلبوا الامان !

وجيش المغرب أصبح فى وسعه ان يسترد فى بضعة أيام ما كان  
البرتغاليون قد استولوا عليه من ثغور المملكة .

وأبو العباس أحمد أصبح جديرا بأن يلقب بالقائد «المنصور» وبأن  
ينادى به سلطانا خلفا لأخيه .

وهذا ما حدث ؟

وعرفت تلك المعركة باسم « معركة القصر الكبير » لأنها وقعت على  
مقربة من هذه المدينة . وعرفت أيضا باسم « معركة الملوك الثلاثة » لان  
الموت اختطف فى أثناء المعركة أبطالها الثلاثة : السلطان الطريد محمد  
المتوكل ، والسلطان المريض المعتصم ، والملك الغريب سباستيانو .

والرابع هو الذى خرج حيا من المعركة ، فاعتلى عرش المغرب ،  
وعرف باسم مولاي أبى العباس أحمد المنصور ، ولقب أيضا بالذهبي ،  
وحكم المغرب خمسا وعشرين سنة ، وكان عهده مفعما بالخير والرخاء  
والمجد .

بعد انتهاء المعركة ، أمر القائد المنصور أبو العباس أحمد بأن تنقل  
جثة أخيه عبد الملك لتدفن فى مشهد لائق بمقامه . وأن تنقل جثة ابن  
عمه محمد المتوكل وتسلم لانصاره لكى يواروها الضريح حيث يريدون .  
وأن تسلم جثة الملك سباستيانو الى ذويه ورعاياه ، ليحملوها الى حيث  
يشاءون .

أما جثة بياتريس ، فقد وقف أمامها القائد مندهشا ، وتسائل  
من أين جاءت هذه المرأة ، ومن الذى جاء بها ، وما حملها على خوض  
غمار المعركة بين صفوف الرجال .

وما وقع عليها نظر رضوان ، قائد الفرسان الاوربي الذى اعتنق  
الاسلام ودخل فى خدمة سلاطين العرب حتى امتقع وجهه ، وأغرورقت  
عيناه بالدموع .

خطا خطوتين نحو الجنة الممددة على الارض ، ثم ركع امامهم  
ركبتيه ٠٠٠

واقترب منه أبو العباس ، وربت على كتفه ، ونظر الرجلان  
منهما الى الآخر ، فقرأ رضوان في عيني رئيسه علامة استفهام  
قائلا :

— هذه بياتريس ٠٠٠ زوجتي ! ٠٠

٠٠ هجرتها منذ أن هجرت بلادي ٠٠٠ وكنت أعرف انها  
أسيرة في أيدي المغاربة ، وانها ربطت مصيرها بمصير المتوكل ٠٠٠ و  
الآن لماذا لجأ الرجل الى الملك سياستيانو ، ومن الذي حرض الاثني  
غزو المغرب ٠٠٠ لقد فعلت بياتريس ذلك لسببين : أرادت أن تنقذ  
لانها أحبته ، وأرادت أن تنتقم مني لانى هجرتها ! ٠٠٠

ولم يكن رضوان مخطئا : فقد أصغت بيساتريس لصوت اله  
وأصغت لصوت الحقد ٠٠٠ ومات حبها وحقدتها معها في معركة  
الثلاثة ، بالقرب من القصر الكبير !

# القصص الأشرب

---

قصة اللون الذي ابتكرته  
الطبعة ، وقلعة الأرباب الصناعات  
العرب ، وحصل اسم أميرة  
أفريقية !



كان الحديث مشبعاً بالمحبة والاحترام المتبادلين ، بين ايزابيلا  
الاسبانية ويمامة العربية ، أمام تلك النافذة المطلة على حدائق قصر  
اسكوريال ، مقر ملوك أسبانيا الراض بين الجبال الوعرة ، على مسافة  
غير بعيدة من العاصمة مدريد •

وكان محور الحديث رغبة ايزابيلا في أن تصحبها يمامة الى ديار  
الغربة •••

— رأيته في المنام أيتها العزيزة ••• كنا معا على ظهر سفينة تتهاوى  
بنا على صفحة الماء ، في طريقها الى الشمال ، الى بلاد «الارض المنخفضة»  
مقر اقامتي من الآن فصاعدا ••• فلا تكذبي الحلم الذي ما هو في الواقع  
غير أمنية يختلج بها صدري ••• لم أرفض لك رجاء منذ اليوم الذي  
عرفتك فيه ••• فلا ترفض لي اليوم هذا الرجاء •••

ترددت يمامة في بادئ الامر ، وتوجست خيفة من الرحيل عن بلد  
ولدت ونشأت فيه ، الى بلد غريب لا تعرفه ، ولا أهل لها فيه ولا أصدقاء •  
ولكن ترددتها لم يطل • فالعوامل التي تفرض عليها القبول ، أقوى  
يكثي من العامل الذي يوحى اليها بالرفض

ان ايزابيلا، ابنة الملك فيليب الثاني ، قد أصبحت زوجة للارشيدوق  
البيرت ، ابن امبراطور النمسا مكسيميليان الثالث ، الذي حله البابا من  
قسمه الكهنوتي كاسقف وكاردينال ، وأجاز له أن يتزوج ويضطلع  
بواجبات المنصب الذي عهد به اليه فيليب الاسباني ، كحاكم للارض  
المنخفضة التابعة لاسبانيا ، والتي قدمها الملك هدية عرس لابنته المحبوبة •

أما تعلق الاميرة ايزابيلا بالمرأة العربية ، فسببه أن يمامة عالجتها  
من مرض خطير بدواء مصنوع من الاعشاب ، فشفيته المريضة ، واستولى  
على قلبها العرفان بالجميل ، فأصبحت لا تطيق أن تباعد عنها « الطيبة »  
كما كانت تسمى يمامة ، وراحت تغدق عليها النعم والعطايا بلا حساب •  
ولهذا ، فقد تنفست الصعداء لما أجابتها صديقتها الى ما طلبته

منها ، وتعهدت لها بأن ترافقها الى مقر اقامتها الجديد ، بعيدا عن وطنها الأسباني . وقالت لها أنها واثقة من أن باباها - وهو ولي أمرها - لن يعارض في سفرها ، بالرغم من الظروف الخاصة التي تعيش فيها أسرنا العربية في الارض الأسبانية .

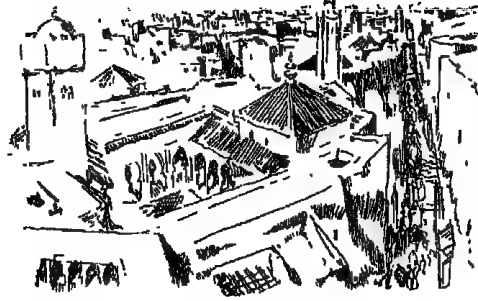
قيامه ابنة «يوسف الصباغ» من أم أسبانية . وأبوها حفيد «صالح الصباغ» من نصاري دمشق . وهو الذي ورث عن أسلافه ثروة كبيرة ، وأخذ عنهم الاتقان والدقة في دباغة الجلود وصباغة الأقمشة والانسجة ، وهي صناعة راجت وازدهرت على أيدي أفراد الأسرة الشامية في الاندلس ، وعلى الخصوص في مدينة غرناطة حيث استقر الجد الأكبر لآل «الصباغ» وأول من حمل هذا الاسم المستمد من صناعه .

لما انتهى الحكم العربي بالاندلس ، في أواخر القرن الخامس عشر الميلادي ، وأوائل القرن العاشر الهجري ، ونزحت عن «الفردوس المفقود» جموع الشعب المغلوب على أمره ، واجتازت البحر الى ديار المغرب ، مع الملك أبي عبد الله محمد ، عم الملك فرديناندو الذي آل اليه الحكم في أسبانيا كلها ، الى منع فريق كبير من أرباب الصناعات المختلفة ، من الرحيل مع الهاربين . وكان آل الصباغ من هذا الفريق . وبقي معهم في غرناطة آل «البيطار» وهم من أسرة نصرانية أصلها من بيت المقدس ، وآل «العواد» وهم من مسلمي حلب الذين توارثوا العزف على العود والقانون واستوطنوا الاندلس قبل الكارثة بقرن أو أكثر .

ومرت الاعوام . وتطورت الأحوال ، وكان الحكام الأسبانيون يعاملون العرب بالقسوة حيناً ، وباللين حيناً ، وكان العرب يخلدون الى السكينة أو يثورون على الأوضاع الجديدة ، حسبما تكون المعاملة التي يلقونها من أولياء الأمر حسنة أو سيئة .

وفي أواخر حكم فيليب الثاني ، كان يوسف الصباغ عميد أسرته ، التي ظلت تمارس صناعته . أما أسرة «العواد» فلم يبق منها غير واحد هو عامر العواد ، الذي اعتزل الغناء والعزف ، وشارك صديقه يوسف في صناعته .

وتزوج الصباغ فتاة أسبانية رزق منها ابنتين ، ماتت إحداها في سن الطفولة ، وتزوجت الثانية ، وهي يمامة الشاب حمدان «البيطار» آخر من كان باقيا على قيد الحياة من الأسرة التي اشتهرت بتربية الخيول ونرويضها . وقد مات حمدان بعد زواجه ببضعة شهور ، فانقرضت.



فاس : اقدم العواصم بالقرب

أسرته ، وعادت زوجته يمامة الى بيت أبيها . ولا ماتت أمها الاسبانية ،  
كرست نفسها للعناية بذلك الاب الذى أفرغ فيها حبه وحنانه .

وكانت يمامة قد تعلمت من زوجها طبيب الخيول ، اعداد وصفات  
عربية من مختلف أنواع النباتات ، ثبت لحمدان البيطار انها تشفى فى  
آن واحد من بعض أمراض الحيوان والانسان على السواء . فصارت المرأة  
تعالج بها من يلجأ اليها من المرضى ، وبدون مقابل ، لا فرق عندها بين  
عربى وأسبانى . وذاعت شهرة «الطبيبة» العربية فى غرناطة وفى غيرها  
من المدن الاسبانية ، التى كان لأبيها وشريكه فيها فروع للدباغة  
والصبغة ، والتى كانت تتردد عليها مهما من وقت الى آخر .

وطرقت تلك الشهرة أبواب القصور الملكية .

أصيبت الاميرة ايزابيلا ، ابنة الملك فيليب الثانى ، بذلك المرض  
المجهول الذى حار الأطباء فى تصويره وعلاجه ، فهمست فى أذن المريضة  
احدى الوصيفات قائلة :

— لماذا لا تستدعى مولاتى الطبيبة العربية يمامة وهى اليوم تقيم  
فى المدينة ؟

والمريض اليأس يتعلق بحبال الامل !

دخلت يمامة قصر الملك . ولقيت ايزابيلا الشفاء على يدها . وكان  
ذلك هو الخيط الاول فى نسيج الصداقة التى حاكتها الايام بين المرأتين :

الاميرة الاسبانية البسالة من العمر ثلاثين عاما ، والطبيبة العربية التي اتفق ان كانت في هذا العمر أيضا .

ومضت سنتان ، لم تسمح ايزابيلا في خلالهما لصديقتها بأن تغادر العاصمة ، بل خصتها بحجرة في القصر الذي تقيم فيه ، وكانت تصر على أن ينزل أبوها أيضا ضيفا عليها ، اذا ما أراد أن يزور ابنته .

وفي سنة ١٥٩٨ ميلادية الموافقة لسنة ١٠٠٧ هجرية ، قرر الملك فيليب الثاني أن يتم ذلك الزواج السياسي بين الابنة التي يخصها بحبه ، والأمير الذي أعده ليكون حاكما وملكا ، البيرت النمساوي .

وهال ايزابيلا أن تفترق عن صديقتها العربية فالتحت عليها بأن ترافقها الى الارض المنخفضة ، ولم تمنع يمامة في النزول عند رغبة العروس .

الاضطراب يعم البلاد التي ذهب البيرت وزوجته ايزابيلا ليتسلما مقاليد الحكم فيها ، وهي تشمل هولندا وبلجيكا وجزءا من أقاليم فرنسا الشمالية الغربية . فاضطرا الى خوض غمار حرب دامية ، واجها فيها الجيش الفرنسي من ناحية ، وقوات الامراء المحليين من ناحية أخرى .

ومات فيليب الثاني في السنة التي تزوجت فيها ابنته الارشيدوقة ، وخلفه ابنه فيليب الثالث ، فأقر أخته وزوجها على ولايتهما ، ووافهما بالندجات المتوالية ، فوسعا شقة الحرب ، وكان البيرت يقود جيوشه بنفسه ، فذاق نشوة النصر ومرارة الهزيمة ، ولكنه عرف كيف يقطف ثمرة النصر ، وكيف يتجنب اليأس بعد الهزيمة .

وظلت ايزابيلا ملازمة له ، في السراء والضراء ، ترافقه الى ميادين القتال ، وتسهر على راحته ، وتعنى بصحته . وظلت يمامة أيضا ملازمة لصديقتها مثل ظلها ، وكثيرا ما كانت الطبيبة العربية تستخدم وصفاتها وعقاقيرها لمعالجة الجرحى والمرضى من أولئك الاغراب الذين أرادت لها الاقدار أن تعيش بينهم .

كانت مدينة « أوستاند » أمنع المعاقل الحصينة التي لابد من الاستيلاء عليها ، لكي يستتب الأمر للارشيدوق وزوجته . فضرب عليها البيرت الحصار من الجهات الأربع وأقسم أمام قواد جيشه على ألا يرتد عنها قبل أن تسقط في قبضته ...



وأضاف الى هذا القسم المؤلف بين الغزاة والفاتحين ، قسما آخر جاء فريدا في نوعه وشكله . فقال لزوجته على مسمع من معاونيه :

- ايزابيلا ٠٠٠ احفظي ثيابي في صندوق محكم الاقفال ٠٠٠ فأننى أقسم الآن أمام الله والناس ألا أنزع القميص الذى على جسدى وألبس قميصا غيره ، الا بعد أن أدخل هذه المدينة منصورا وأغير ثيابي فى قصر الحاكم ٠٠٠ !

واستغرق حصار اوستاند ثلاثة أعوام 1 .

وتمسك البيرت بقسمه المزدوج ٠٠ لم يرفع الحصار عن المدينة ، بل ضيق عليها يوما بعد يوم ، ولم تستطع زوجته اقناعه باستبدال قميصه !

ولما اقتحم جيشه أسوار اوستاند ، واستولى على المدينة العاصية ، نزع الارشيدوق قميصه عن جسده ، وقال لايزابيلا :

- الى الآن بقميص آخر !

بعد ثلاثة أعوام على الفوه بالقسم وعلى بدء الحصار ، تغير لون القميص : كان ناصع البياض ، فأصبح ذا لون أشهب ، من كثرة ما علق به من غبار وتراب وعرق ودخان . ولم تمزقه ايزابيلا ، ولم تفسله من قدراته ، بل احتفظت به كما هو ، وقالت لزوجها :

- سيكون هذا القميص أيها الحبيب أعز تذكاري عندي لهذا النصم الذى أحرزته فى اوستاند . أما هذا اللون الغريب الذى اصطبغ به خلال الحصار ، فأننى أتبناه وأريد أن يعرف فى مستقبل الايام باسم « ايزابيلا » !

وفى مساء ذلك اليوم ، فى سنة ١٦٠٤ للميلاد ، الموافقة لسنة ١٠١٣ للهجرة عادت الاميرة الاسبانية الى النحدث مع صديقتها العربية عن الماضى وذاكرات الايام السالفة ، تحت سماء الاندلس .

وتلاطمت الشجون فى صدر يمامة ، واستبد بها الشوق الى البلد الذى رأت فيه النور ، والحنين الى الاسرة التى طالعت غيبتها عنها ، فنفرت الدموع من عينيها ، بالرغم منها .

وأدركت ايزابيلا ماتعانيه العربية من آلام نفسية ، فقالت لها :

- يمامة ٠٠٠ لن أقض عليك البقاء معنا بعد اليوم ، فقد جلبت

لى الحظ كما كنت أرجو ، ولابد أن يخيم السلام على هذا البلد ، بعد أن تحققت آمالتنا وتم لنا النصر فى هذه الحرب .. أتريدن العودة الى الأندلس ؟

– نعم .. إذا كنت تسمحين .

– يمامة .. أنت عنوان المحبة والوفاء .. لقد رجوتك بأن تأتى مئى الى هنا . فجئت الآن ، أرجوك أن تعودى الى أهلِكَ وذويك ، وسأوفر لك جميع أسباب الراحة فى الطريق .. ولكن لى رجاء آخر ، هو فى الحقيقة مهمة أرغب فى أن أكلفك بها ، لدى أبيك الطبيب ، الذى حرم نفسه من ابنته ، كيلا أحرم أنا من صديقتى .

– أنا طوع أمرك .

– خذى هذا القميص الأشهب ، الذى سيعرف باسم «إيزابيلا» وقولى ليوسف الصباغ وشريكه عامر ، اننى أرغب اليهما فى ادخال هذا اللون الجديد بين الألوان التى يصبغان بها الاقمشة والانسجة، فان أمنيته بعد الآن أن ينتشر هذا اللون بين الناس ، ويعم اسبانيا والارض المنخفضة وكل بلد تفرق عليه أعلام أخى الملك وزوجى الارشيدوق .

– سأحقق لك هذه الامنية ، أيتها الاميرة العزيزة ، وأمل أن تحققى أنت الامنية التى تقابلها فى صدر يمامة التى أحبتك وأخلصت لك .

– سأحققها ، أيا كانت هذه الامنية .

– أريد منك أن تكونى واسطة خير بين أخيك الملك ، وبين أسرنا ، اننى أعرف أن أبى وشريكه عامر يرغبان فى الرحيل عن اسبانيا ، واتخاذ بلاد المغرب الأقصى وطناً لهما .

– سأطلب من أخى فيليب أن لا يمانع فى ذلك .

فأخذت يمامة القميص الأشهب ، وتعانقت الصديقتان ، وكان الفراق أليماً شديداً الوقع على المراتين الوفيتن .

فى غرناطة ، حيث وافت يمامة اباهما بعد غياب دام أكثر من ستة أعوام بذل يوسف الصباغ جهده وبراعته فى تكييف صباغة الكتان باللون الأشهب «الايزابيلي» المطابق للون القميص الذى حملته ابنته معها ، فجاءت النتيجة محققة لامنية ايزابيلا الى غمرها الفرح يوم تلقت القطعة الاولى من النسيج الفاخر المصبوغ باللون الذى يحمل اسمها .

وأقبل الناس على شراء الكتان الأشهب ، فانتشر في أنحاء اسبانيا  
وبلاد الأرض المنخفضة ، ولقن يوسف الصباغ فنه ، وأفضى بسر مهنته ،  
إلى بعض اصدقائه من العرب والاسبانيين المشتغلين في صناعته .

وفي سنة ١٦٠٦ ، رحل الشريك ، يوسف وعامر ، إلى بلاد المغرب  
واستقرا في مدينة «القصر الكبير» حيث التقيا بكثيرين من العرب النازحين  
من اسبانيا ، وكان ذلك في عهد الشرفاء السعديين .

وأنشأ الرجلان هناك صناعة جديدة ، وأدخلا على أشكال الصباغة  
والدباغة ألوانا غير مألوفة ، ومن بينها اللون الأشهب الازليطي ، الذي  
أطلق عليه الناس فيما بعد اسم «اللون السوسني» .

كان يوسف الصباغ قد جاوز السبعين من العمر ، وكان شريكه  
عامر العواد اصغر منه بعشرين سنة أو أكثر .

وقال يوسف لعامر ، في مساء يوم ممطر ، وهما يرتشفان ماء  
النعناع الذي أعدته لهما يمامة :

— يا عامر .. اشعر بدنو أجلى .. وستكون انت الوارث لجميع  
أسرار المهنة التي اشتهرت بها أسرتي ، واستمدت منها اسمها ، أما ثروتى  
فانها عائدة إلى ابنتى الوحيدة ، وهى البقية الباقية من هذه الاسرة .

فقالت يمامة ، محاولة أن تبدد الافكار السوداء التي تساور أباهما :

— سوف تعيش طويلا يا أبى ، وسوف تشملنا بركاتك أعواما  
عديدة أخرى .

— لا يا ابنتى .. ان الاعمار بيد الله .. والأجل أصبح قريبا ..  
وسأرحل مطمئنا عن هذا العالم ، لو تحققت لى من الآن أمنية ليست وليدة  
هذه الساعة ، بل يرجع منشأها إلى اليوم الذي أصبح فيه عامر وحيدا  
في هذه الدنيا ، بعد وفاة زوجته ، منذ ثلاثة أعوام .

أدرك الشريك ، وأدركت الابنة ، ماذا يعنى يوسف الصباغ بهذه  
العبارات .

وتحققت أمنية الشيخ الذي عاش سنواته الاخيرة مطمئن البال قريب  
«العين» ، في بيت واحد مع ابنته يمامة وزوجها عامر العواد .

واتسعت صناعة الصباغة وازدهرت ازدهارا بعد موته ، وأصبح

اللون الاشهب «الايزابيلي» كما كان يسمى فى اسبانيا ، والاشهب «الموسني» كما كان يسمى فى بلاد العرب المغاربة والمشاركة ، من الالوان الرائجة التى يقبل عليها الرجال والنساء على السواء ، وظلت يمامة الطيبية العربية ، توافى صديقتها الاسبانية ايزابيلا بالكتان المصبوغ باللون الذى تحبه ، حتى وافاها الأجل فى عام ١٦٣٣ ، وكان زوجها أليبرت قد سبقها الى العالم الآخر ، فى عام ١٦٢١ .

أما عامر العواد وزوجته يمامة بنت الصباغ ، فقد رزقا ذرية حافظت على صناعتها واتقانها وسمعتها ، أعواما عديدة فى مدينتى القصر الكبير وفاس ، بالمغرب الاقصى ، وفى الديار المصرية والشامية .

# عرتنا .. سلطانة المغرب

---

كان مواطنوها يسمونها  
« المغربية » والمغاربة يسمونها  
« الافرنجية » ، وقد خدمت  
الوطن الذي تبناها بأمانة  
واخلاص ~



كان الجنرال «جورجيو» رفيقا لنا بليون الاول في منفاه بجزيرة «سانت هيلين» ، وقد نقل في مذكراته العبارة الآتية عن لسان الامبراطور «العزيز» : (كانت سلطنة المغرب في ذلك الوقت فرنسية من جزيرة كورسيكا . وقد جاء اخوها (فرانشيسكي) الى باريس وعرض على وزير الشؤون الخارجية أن يسافر الى المغرب ويعمل لمصلحة فرنسا . فاعتقدت في بادئ الامر أن في المسألة نصبا واحتيالا ، ولكن الوزير ثبت من الحقيقة فأعطيته ثلاثين ألف فرنك لهذا الغرض . وقد كللت المفاوضات بالنجاح ، وبسط امبراطور المغرب حمايته على الفرنسيين هناك وأسدى الينا خدمات جليلة . فأرسلت اليه هدايا بنصف مليون فرنك » .

هذا ما قاله الامبراطور الفرنسي للقائد الذي عاش معه في المنفى . فمن هي تلك السلطنة الفرنسية التي تحدث عنها ، والتي ولدت مثله في جزيرة كورسيكا ؟

اسمها «مرتيا فرانشيسكي» واسم أبيها «جاك ماريا» وهو من سلالة الكونت فرانشيسكو كولونا ، النبيل الرومانى الذى استوطن جزيرة كورسيكا سنة ١٥٠٠ . وقد ولدت مرتيا في ٢ من يونيو سنة ١٧٥٦ ببلدة كوربارا الصغيرة ، الرابضة بين الصنخور على سفح جبل يشرف على البحر .

وكان البحر في ذلك الوقت مسرحا لاعمال القراصنة ، يتبارى فيه القراصنة المنطلقون من موانئ ايطاليا وفرنسا وتونس والجزائر والمغرب الاقصى ، وكانت جزيرة كورسيكا عرضة لغزوات القراصنة من العرب والبربر ، الذين كانوا ينزلون على شواطئها ، ويسبون النساء والبنات والشبان ، ويبيعونهم في أسواق الرقيق جريا على العادة المتبعة في ذلك العهد ، حيث لم يكن الرق قد ألغى بعد ، وحيث كان الانسان يستعبد الانسان ، والشعوب تستعبد الشعوب .

وحدث ذات يوم أن هبطت أسرة فرانشيسكي من بلدتها الى شاطئ البحر في نزهة مسائية ، فداهمها القراصنة وخطفوها وحملوها الى

سفينتهم قبل أن يتمكن رجال البلدة من نجدها ، فوقفوا على الشاطئ  
ينظرون الى السفينة تبعد وعليها جاك ماريا وزوجته وولدها فنشنتى  
وأوغستينو وابنته مرتا الصغيرة .

واقطعت اخبار الاسرة بضعة أعوام .

وفجأة عاد الرجل والزوجة والولدان الى كورسيكا ، فرحب بهم  
اهل البلدة ، وسألوهم بلهفة عن مصير الطفلة مرتا ، فقص عليهم جاك  
ماريا قصته قال :

« ذهب بنا القراصنة الى تونس حيث عرضونا للبيع فى سوق  
الرقيق ، فكان من حسن الحظ أن ابتاعنا احد وكلاء الباي فأقمنا جميعا  
فى قصره ، وعوملنا معاملة حسنة ، ولكننا كنا فى عداد الاسرى الارقاء ،  
نقوم بالأعمال التى يعهد اليها بنا ، ونبكي الحرية الغالية والوطن المفقود .  
ولم يكن بوسعنا أن نفكر فى الهرب لتعذر وسائله ولشدة الرقابة عند  
منافذ المدينة وعلى شاطئ البحر ، فرضخنا لحكم القدر وبتنا ننتظر الخلاص  
من الرب القادر على كل شيء ا

« قضينا فى الأسر والعبودية ثلاثة أعوام ، كنت فى خلالها قد  
انصرفت الى دراسة اللغة العربية فأتقنتها قراءة وكتابة ، وكان الله قد  
استمع الى صلواتنا ، فقدر لى أن أطلع مصادفة على سر مؤامرة دبرها  
فريق من الضباط والجنود لاغتيال سيد البلاد ، واسمه سيدي على باى ،  
فأفضيت اليه بما علمت من أخبار الثأمرين ، وكنت سببا فى انقاذ حياته ،  
فأغلق على العطايا والنعيم ، وأعاد الى حريى ، وأمر بأن تمهد لى سبل  
العودة الى بلادى .

« تنفسنا جميعا الصعداء ، وأسرعنا الى الميناء فاستأجرت سفينة  
صغيرة وخمسة من البحارة ، وركبت مع الاسرة وانطلقت بنا السفينة  
ميممة شطر جزيرتنا المحبوبة ! غير ان كارثة جديدة حلت بنا ، لا تقل  
شدة من الكارثة السابقة ، فقد هاجم القراصنة المغاربة سفينتنا وهى فى  
عرض البحر ، وعلى مرمى النظر من ساحل كورسيكا ، فقتلوا رجالها ،  
واضرموا فيها النار ، وحملونا نحن الى سفينتهم ، وعادوا بنا الى  
بلادهم حيث عرضونا مرة ثانية للبيع فى سوق الرقيق !

« وكنا فى هذه المرة من نصيب أمير مغربى واسع الثراء والجاه . .  
لم يشأ أن يفرق بيننا فاشتري الاسرة كلها دفعة واحدة ، كما فعل وكيل





« الرس » او ريان السعينة  
كما يراه الرسام وولفجانج في القرن  
السابع عشر

الباى من قبل . وهكذا شاعت الاقدار التى أنقذتنا من الاسر والعبودية  
فى تونس ، أن تعيدنا اليهما فى المغرب ، قبل أن نتمتع بنسيم الحرية ،  
وبدون أن تكتحل عيوننا برؤية الوطن العزيز !  
ولكننى جعلت أفكر فى الخلاص منذ اللحظة التى وطئت فيها  
أقدامنا أرض المغرب . وخطر لى فى الحال خاطر وضعت بهلا ابطاء موضع  
التنفيذ فكتبت رسالة باللغة العربية الى سلطان المغرب مولاي محمد ،  
رويت له فيها ما حدث لى فى تونس ، وكيف اننى انقذت حياة الباى  
من كيد المتآمرين ، وطلبت أن ينظر الى والى أسرتى التى تصحبنى بعين

العطف والتقدير . فرق السلطان لحائنا ، وأبدى رغبته في رؤيته  
فذهبنا إليه في قصره ومعنا السيد المربي الذي اشترانا ، وبعد أن ثبت  
للسلطان أنني لم أكتب فيما ادعيت ، أمر بأن يطلق سراحنا ، وأن توضع  
تحت تصرفنا سفينة من سفنه ، تحملنا إلى كورسيكا في حراسة كافية  
تضمن سلامتنا ، وتمنع وقوعنا في أسر القراصنة مرة ثالثة !

«غير أن شيئا واحدا نفص علينا ما شعرنا به من فرح واطمئنان :  
فقد استرعت ابنتي مرتا ، وهي اليوم في الثالثة عشرة من العمر، أنظار  
السلطان بجمالها الباهر وشبابها الغض ، فرغب في الاحتفاظ بها في  
قصره بين نسائه وجواريه ، قائلا لي أنه سيجعل منها سيدة البلاد الأولى،  
ويرفعها إلى أوج العلى والسعادة والهناء» .

سكت جاك ماريا لحظة ، وترقرقت الدموع في عينيه ، ثم استطرد  
قائلا :

« ولهذا أيها المواطنون والاصدقاء ، فافكم ترونني عائدا الآن اليكم  
مع زوجتي وولدي ، محملين بالتحف والاموال والارزاق ، لكنكم لا ترون  
معنا تلك الابنة الحبيبة ، التي اضطررنا إلى التخلي عنها هناك ، والتي  
أرجو أن لا تطول غيبتها علينا » .

لم تطق الأسرة صبرا على هذا الفراق . وما مرت شهور على عودته  
جاك ماريا إلى بلدته كوربارا ، حتى راح يعد العدة للقيام بمغامرة خطيرة.  
لانقاذ ابنته وانتزاعها من قصر السلطان بمدينة فاس . فجمع حوله فريقا  
من الجبليين الأشداء وجهز سفينة أقبلت به وبرفاقه إلى المغرب ، فاجتازت  
البحر بدون أن يلحق بها سوء ، وبلغت بالسلامة ساحل المغرب ، ولكن  
الحظ العائر أراد للكورسيكيين أن يصلوا إلى «رباط الفتح» في الوقت  
الذي كان فيه وباء الطاعون متفشيا في البلاد ، فأصيب جاك ماريا  
بالمرض في أول يونيو سنة ١٧٧٠ ميلادية الموافقة لسنة ١١٨٤ هجرية  
وهروا رفاقه مسرعين إلى سفينتهم وعادوا بها إلى جزيرتهم خائبين .

ومرت الاعوام بدون أن يتسرب إلى كورسيكا لا كثير ولا قليل من  
أخبار الفتاة المقيمة في قصر السلطان مولاي محمد بفاس . وعيننا حاول  
أخواها وإمها الاتصال بها بواسطة القناصل والتجار واصحاب السفن  
فقطعت الأسرة كل أمل في لقاء الابنة التي كان سكان القرية يسجونها  
«المغربية» في حين أن المغاربة كانوا يسمونها «الافرنجية» .

ولكن مرنا لم نياس من الاتصال بأهلها وعشيرتها ، ففي سنة ١٧٨٦ ميلادية . الموافقة لسنة ١٢٠٠ هجرية رست في ميناء كالفى على مغربة من بلدة كوربارا ، فافلة من السفن المغربية نزل منها جماعة من الامراء العرب ، يتبعهم حراس مسلحون ، وعبيد يحملون عشرات من الصناديق والاكياس : تلك هى البعثة التى أوقدتها مرنا فرائشسكىنى «سلطان المغرب» الى بلدها ، بأمر من زوجها السلطان مولاي محمد بن عبد الله الحسنى !

وعلم سكان جزيرة كورسيكا بما كانوا يجهلون ، وقص عليهم رجال البعثة قصة الفتاة التى ملكت قلب مولاهم فأجلسها على العرش ، وجعلها موضع ثقته ، واتخذها زوجة وصديقة ومستشارة مسموعة الكلمة نافذة الرأى ! .

ما الذى حدث لمرنا بعد فراقها عن أبيها وأمها وأخويها فى مدينة قاس ، وهى بعد فى الثالثة عشرة من العمر ؟

لقيت الفتاة حظوة فى عيني السلطان ، وما مضت ثلاثة أعوام على دخولها القصر حتى كان مولاي محمد قد بر بوعده لأبويها وأخويها ، فجعل منها سيدة النساء فى حرمه ، واتخذها زوجة له ، وأحلها فى نفسه المنزلة الاولى .

كان مولاي محمد قد خلف ابيه مولاي عبد الله على عرش المغرب فى سنة ١٧٥٧ ميلادية ، الموافقة لسنة ١١٧٠ هجرية فعرفت البلاد فى أيامه عهد رخاء وطمأنينة وسعة نفوذ . فقد عقد ذلك العاهل العظيم معاهدات صداقة وتعاون مع بعض الدول الاوربية ، وجلب الى عاصمته ملكه لفيقا من الخبراء الاوربيين الذين هجروا بلادهم واتخذوا المغرب موطنهم والاسلام دينهم ، فاستعان بهم لتحقيق طائفة من الاصلاحات فى جميع مرافق الحياة ، وكان يتبادل الرسائل والوفود والهبات مع الملوك والاباطرة والامراء فى الشرق والغرب ، وكانت زوجته السلطانة مرنا تتولى كتابة الرسائل اليهم ، والرد على خطاباتهم ، وتقضى الى زوجها بأرائها الصائبة فى كل كبيرة وصغيرة من شئون الدولة ، فازداد اعجابه بها ، وتضاعف حبه لها .

وظلت مرنا تحدث السلطان عن أهلها وبلدها ، فأراد فى النها - أن يستجيب لرغباتها ، وأمر بأن توفد الى كورسيكا بعثة تتولى الب

عن أسرة فرانكسكي في كوربارا ، ونأتى بها الى المغرب اذا شامت ،  
بعد استئذان لويس السادس عشر ملك فرنسا في ذلك الوقت .

تلك هى البعثة التى وصلت فى قافلة من السفن المغربية الى نقر  
كأنفى ، واطلعت سكان الجزيرة على حقيقة ما حدث للطفلة التى اقتقدوها  
منذ أعوام .

وكتبت مرتا الى ملك فرنسا تنبئه بسفر البعثة الى كورسيكا ،  
فاهتم لويس السادس عشر بالامر ، وبعد بضعة أسابيع من وصول  
الرسائل المغاربة الى كوربارا ، غادروا ميناء كأنفى فى سفنهم ، وقد انضمت  
اليها سفن فرنسية أخرى ، تحمل أسرة فرانكسكي ورمطاً من سكان  
الجزيرة ، الى بلاد المغرب .

وأمر مولاي محمد بأن تفتح أبواب قصره للوافدين من موطن زوجته  
المحبوبة ، فاصطف «الحرس الاسود» فى طريق القصر ، وحيا الضيوف  
بقرع الطبول والنفخ بالابواق ، واستقبل السلطان فى أفخم ردهات القصر  
أم زوجته واخويها ، وكان اللقاء مؤثراً ، فالتقت مرتا بنفسها بين ذراعى  
أمها التى لم تعرفها لأول وهلة ، واستأذنت زوجها فى أن تقبل الأخوين .  
اللذين افترقت عنهما وهما فى مقتبل العمر ، وحلت الأسرة فى جناح من  
القصر ، وقد غمرها الفرح واكتنفتها السعادة !

وكانت السلطانة الفرنسية قد رزقت بنتاً سميتها أيضاً « مرتا »  
وعلمت النفس بأن تزق ابناً قد يخلف أباه على العرش . لكن هذا الامل  
لم يتحقق ، فحصر السلطان وراثته العرش فى ابنه الأكبر يزيد ، الذى  
رزقه من امرأة أرلندية كان أبوها قد اعتنق الاسلام واستوطن المغرب

وكان يزيد يكره زوجة أبيه الكورسيكية ويكيد لها فى الخفاء ، بل  
كان يكيد لابيه ويتآمر عليه ويسعى لانتزاع الملك منه قبل موته ، وبلغ  
الجحود بهذا الابن العاق ان رفع راية العصيان وجمع انصاره فى الجبال ،  
فقرر مولاي محمد ان يعاقبه على غروره ، ويقضى على نورته فى مهدها .  
فحشد جيشاً من حرسه الخاص وتاهب للزحف بنفسه على مقر الابن الثائر  
ولكن يدا خفية دسّت له السم فى الطعام ، فشعر السلطان بأن ساعته  
قد دنت ، ودعا زوجته المختارة اليه ، وهمس فى أذنها قائلاً :

— مرتا .. لقد أحبتك وأخلصت لك بقتن ما أحبتنى وأخلصت لى  
ولك الآن أن تعودى الى أهلك اذا شئت ، أو أن تبقى فى هذا البلد

المضياف ممززة مكربة ٠٠ ولكن احذرى يزيدا فقد يدس لك السم كما  
دسه لى ٠ ولا تثقى الابولدى سليمان ٠٠ الذى أرجو أن ينتقم لى من أخيه  
وان يؤول اليه الملك من بعدى ، لكى يحافظ على هذا الوطن قويا منيعا .

وأسلم مولاي محمد بن عبد الله الروح بين أحضان مرتا الفرنسية  
سلطانة المغرب ، فى الحادى عشر من شهر ابريل سنة ١٧٩٠ ، الموافقة  
لسنة ١٢٠٤ للهجرة .

تحفقت أمنية السلطان الراحل بعد موته ، فلم ينعم مولاي يزيد  
بالمك طويلا ، بل مات فى ظروف غامضة ، واقتتل اخوته بضعة شهور ،  
وانتهى ذلك الصراع بارتقاء مولاي سليمان بن محمد عرش آبائه واجدادهم  
وظل جالسا عليه حتى وافاه الأجل فى سنة ١٨٢٢ ميلادية ، الموافقة  
لسنة ١٢٣٧ هجرية .

وكان هذا السلطان بارا بذكرى أبيه مولاي محمد ، وقد نسج على  
منواله فى السياسة والادارة ، واحاط زوجة أبيه الفرنسية بمظاهر  
الاكرام والاحلال ، وكانت المسكينة قد فقدت ابنتها الوحيدة ، فوجدت  
بعض العزاء فى معاملة السلطان الجديد لها ، واجتماع أعضاء أسرتها  
حولها بعد طول الفراق .

ومن أعمال هذا السلطان الباهرة ، قضاؤه على شرور القرصنة ،  
ودعوته ملوك أوروبا الى التعاون معه فى تأمين السلامة للمسافرين فى  
البحار ، وهو الذى أرسل الجنرال نابليون بوناپرت ، وكتب اليه يقول  
أن سلطنة المغرب فرنسية مثله من جزيرة كورسيكا ، وكان يعنى زوجة  
أبيه مرتا فرانشسكىنى . وفى سنة ١٧٩٩ ، أوفد مولاي سليمان شقيق  
السلطنة السابقة ، فنشنتى فرانشسكىنى فى بعثة الى بوناپرت . وفى  
أثناء وجود البعثة فى باريس ، تفشى وباء الطاعون مرة أخرى فى المغرب  
فأصيب مرتا بالمرض القاتل كما أصيب بها أبوها من قبل ، وماتت فى  
١٥ يونيو سنة ١٧٩٩ الموافقة لسنة ١٢١٣ للهجرة .

ماتت مرتا فرانشسكىنى سلطنة المغرب فى الأربعين من العمر ،  
بعد أن جلست على العرش وقاسمت زوجها مولاي محمد ، حلو الحياة  
ومرها نحو عشرين سنة . ولم يسعدها الحظ بأن ترى وطنها كورسيكا  
منذ أن خطفت منه طفلة صغيرة ولم تترك أبناء ولكنها تركت ذكرى طيبة  
عطرة ، وخدمت الوطن الذى تبناها بأمانة وإخلاص ووفاء .



# نفسية الجزائرية

---

ثورات متواصلة ، معارك وهيبة  
تضحيات متوالية، مقاومة  
ضارية : هذا هو تاريخ الجزائر  
العربية منذ عام ١٨٣٠ ، وكان  
الختام أن أطلت شمس الحرية  
على البلد الثائر والشعب الأبي  
في سنة ١٩٦٢ .





طاف قائد الحصن على جنود الحامية في المراكز التي حددها لهم بدقة ، وتلقى منهم جماعة بعد جماعة وفردا بعد فرد ، القسم الذي ارتبطوا به تجاه الوطن وتجاه الله وتجاه أنفسهم ، بأن يدافعوا عن حصنهم دفاع المستميتين ، حتى اذا لم يبق منهم على قيد الحياة غير العدد الكافي من الرجال لحمل الجرحى والانسحاب بهم الى مواقع أخرى ، تسلسلوا الى الخارج تاركين العدو جدراننا متهدمة وإطلالا متراكمة !

وواصل العدو هجومه ، وواصلت الحامية دفاعها .

من هم المدافعون ؟ ومن هم المعتدون .

كانت الدولة الفرنسية تبيت الشر للجزائر منذ أعوام عدة ، فقد أمد الجزائريون الشعب الفرنسي بالمال والمؤن والمساعدات المختلفة ، في أيام محنته ، بينما كانت الدول الاوربية تضرب عليه الحصار وتحاول تجويعه ، فبلغت ديون فرنسا للجزائر مايزيد على ستة مليارات من الفرنكات !

حدث ذلك في عهد حاكم الجزائر الداي علي بن احمد ، وفي عهد خلفه الداي حسين بن حسن .

ولما استقرت الامور في فرنسا ، بعد الاضطراب والافلاس ، عهد الداي الى المطالبة بدينه ، وتلكأت الحكومة الفرنسية في الدفع ، بل جعلت تفكر في التخلص من التزاماتها ولتهرب من تسديد ديونها ، حتى ولو اضطرت الى استخدام القوة .

وأتيح لها الفرصة الملائمة : فقد لبثت الجزائر نداء الدولة العثمانية في حربها مع روسيا وانجلترا وفرنسا ، ابان ثورة اليونان في سنة ١٨٢٧ وكان الاسطول الجزائري من بين الاساطيل التي تحطمت في معركة نفارين البحرية .

وفي الوقت نفسه ، عهد رسل فرنسا الى اصطناع خلاف مع الداي حسين بن حسن ، فتحذوه بوقاحة ، وغضب الداي فلوح بمروحة في وجه القنصل الفرنسي ، ولامست المروحة وجه الرجل ، فعدت حكومة فرنسا

ذلك العمل اهانة موجهة اليها فى شخص ممثلها ، وقررت أن تهاجم الجزائر  
بحر الاهانة .

وعلى هذا ، فانها لن تكتفى بالنهريب من دفع الدين المطلوب منها ،  
بل قررت أن تحتل بجيشها أرض الجزائر ، وتحولها الى مستعمرة تستأثر  
بخيراتها ، وتستولى على الاموال الطائلة التى قال لها جواسيسها انها  
مكدسة فى خزائن الداي بمدينة الجزائر ، وهى كافية لسد نفقات الحملة  
العسكرية مهما تبلغ ارقامها .

خطة استعمارية رسمت بامعان تام ، على أساس أن تصيب ثلاثة  
أهداف بحجر واحد : والتخلص من الدين وملء خزانة فرنسا بأموال  
الجزائر ، والاستيلاء على بلد مترامى الاطراف كثير الموارد .

وفى شهر يونيو من سنة ١٨٣٠ ميلادية الموافقة لسنة ١٢٤٥ هجرية  
أبحر الاسطول الفرنسى سربا بعد سرب فى طريق العدوان . وقد خلا  
البحر المتوسط من اسطول جزائرى يرد ذلك الغدر الذى لم يكن أحد  
يتوقعه . وفى الرابع عشر من ذلك الشهر ، نزلت طلائع الجيش الفرنسى  
فى ميناء سيدى فرج . واتخذ القائد العام الجنرال بورمون ، وزميله  
الاميرال دوبرى ، قاعدة للعمليات الحربية ، التى جهزت لها فرنسا ثلاثين  
ألفا من جنودها .

وصمد الجيش الجزائرى بالرغم من المفاجأة ، وهرع السكان أيضا  
الى صد الغزاة بما توافر لهم من سلاح وعتاد ، ولحقت النساء برجالهن  
يحملن لهم الذخيرة ويتولين اعداد الطعام ويضاعفن حماسهم بالزغاريد  
والاهازيج .

توالى المعارك خلال ثلاثة أسابيع كاملة ، تكبد فيها المعتدون خسائر  
فادحة ، ولم يتمكنوا من السيطرة على مدينة الجزائر ، عاصمة البلاد ، الا  
فى اليوم الخامس من شهر يوليو .

وصلوا الى مداخل « القصبة » مركز الدفاع الرئيسى ، ولكن حامية  
الحصن الكبير المشرف على المدينة ظلت تواصل القتال من وراء الاسوار  
العالية والابراج المنيعة .

لم يكن عدد المدافعين عن الحصن يزيد على ألفين من المقاتلين ، بينهم  
أيضا نساء يقمن بخدمتهم ، ويواسين جراحهم ؛ ويوارين قتلاهم فى تراب  
الدهاليز .



بدء العدوان : نزول الحملة الفرنسية في سيدى هرج قرب مدينة الجزائر سنة ١٨٣٠

وحاصر الحصن العاصى عشرة آلاف من جنود بورمون ا

فى ذلك الطرف العصيب ، طاف قائد الحامية ، «الخرننجى» أى وزير  
المالية الجزائرية ، على جنوده فى مراكزهم ، فأقسموا بين يديه على مواصلة  
الدفاع بقدر ما تسمح به طاقاتهم البشرية .

وامتد الحصار أسبوعا كاملا .

كلما فتحت مدفعية العدو ثغرة فى الاسوار ، كان جنود الحامية الباسلة  
يسارعون الى سدّها بالحجارة ، وأحياتا بجثث القتلى من رفاقهم !

أسبوع كانت ايامه مليئة بالتضحيات المتواصلة ، شهدت كل ساعة  
من ساعاته ألوانا رائعة من البطولات الحقة : وتساقط الشهداء واحدا بعد  
واحد ، حتى اذا ما أقبلت نهاية الاسبوع ، لم يكن قد بقى من الحامية غير

بضع عشرات من الرجال ، أنهكهم التعب ، ونال منهم الحرمان كل منال ،  
ومن حولهم خرائب واطلال •

كان الجنود جميعاً قد بروا بالقسم الذى قطعوه على أنفسهم ••  
فأصدر القائد امره الى البقية من إبطاله ، بأن يحملوا الجرحى وينسحبوا  
من الحصن سالكين المنافذ التى يجهلها العدو •

فى ركن من أركان الحصن ، وقف « بو عمران » وزوجته « نفيسة »  
يتبادلان الرأى ، وسط الضجيج المتواصل وهزيم المدافع الذى لاينقطع •

للرجل والمرأة ثلاثة أبناء فى ريعان الشباب • وقد التحقت الاسرة  
كلها بحامية الحصن الكبير • فاستشهد واحد من الابناء الثلاثة فى أثناء  
المحاصر ، وخرج الاثنان الباقيان مع من خرج من الجنود الذين نجوا من  
الموت •

والاب والام يعرفان جيداً ، ماسوف يفعله الاثنان ، فلا شك فى انهما  
سيثاران لآخيهما القليل ، ويستأنفان الجهاد فى ميادين أخرى ، مع من  
يواصلون القتال فى المدن والقرى والصحارى والجبال •

وقال بو عمران :

— أما نحن يا نفيسة ، فإن فى وسعنا أن نأخذ بثأرنا من الآن ، وبدون  
أن نغادر هذا الحصن ، وقد نموت فى سبيل النار ، ولكن بعد أن نرضى  
الله والوطن وفقيدنا العزيز •

وقالت المرأة :

— رأيك دائماً هو الرأى الصائب يا بو عمران • ولن أخالفك اليوم ،  
كما اننى لم أخالفك فى أى يوم مضى ، فماذا ترى أن نفعل ؟

كان الجنود ينسابون الى الخارج حاملين الجرحى ، ويتضاءل عدد  
الباقين منهم داخل الاسوار فى انتظار دورهم للاختفاء فى الداهليز •

واستطرد بو عمران يقول :

— لقد وارينا شهيدنا التراب • وودعنا أخويه على أن نلتقى بعد ان  
يتم الانسحاب •• ولكننا لن نلتقى •

فسألت الزوجة :

—ماذا تعنى !

وبلجها الأمر الذي اتخذ قرارا وصمم على تنفيذه ، قال بو عمران :  
- سوف ننتظر دخول الاعداء الى الحصن ، وانتشارهم في أرجائه  
بعد أن يكون رفاقنا قد ابتعدوا وأصبحوا في أمان ، ثم ...

- ثم ماذا ... سيقتلنا الفرنسيون \*

- لا... بل سنقتل منهم عشرات ومئات ، قبل أن يتمكنوا من تثبيت  
أقدامهم في الحصن ، وقبل أن يصلوا الى مستودع البارود ... ينبغي ألا  
يستولى الفرنسيون يا نفيسة الا على أكوام من الخرائب \*

- فهت يابو عمران \*

- اذن ... فلا شك في أنك توافقيني على ما اتخويت الاقدام عليه \*

- نعم \*

- هيا بنا ... وكوني رابطة الجاش كمهدى بك في كل وقت ،  
يا نفيسة ... فقد لانخرج من هنا ... وندفن تحت انقاض الحصن ، مع  
الاعداء ...

. واحتضن الرجل زوجته ... ثم أخذها من يدها ، واختفى معها في  
فجوة بجوار الركن الذي كانا واقفين فيه \*

بينما الجنود الفرنسيون يتدفقون الى صحن القلعة ، في جلبلة  
المنتصرين ، وترتفع أصواتهم بأناشيد الظفر ، دوى انفجار هائل زلزل  
الأرض تحت أقدامهم ، وهز ما تبقى قائما من الجدران الضخمة ، فتطاير  
التراب في الجو ، وارتفعت في الفضاء سحب سوداء ، وتساقطت الحجارة  
في كل صوب ، وحلت صيحات الذعر والهلح محل أناشيد النصر ، وهوت  
الاسوار بأبراجها ، وتحول الحصن الكبير ، الى قبر كبير \*

أشعلت نفيسة وزوجها بو عمران النار في البارود ، فكان الانفجار  
الذي حول المكان الى جحيم متأجج \*

وهلك من هلك من الجنود المهاجمين \* ودخل رفاقهم في أثرهم  
ليحتلوا الاطلال \*

وقتل نفيسة وزوجها ، وراحا شهيدى الواجب ، ولحقا يابنهما الذي  
سبقهما الى عالم الخلد \*

أما الابن الثاني والابن الثالث ، فقد ابتعدا سليمان ، ليلتحقا بالمجاهدين ، في ظاهر المدينة •

واحتل الفرنسيون عاصمة الجزائر ، ونهبوا القصبة ، ووضعوا أيديهم على خزائن الحكومة الجزائرية المملوءة ذهباً وفضة وحجارة كريمة فنقلوا ذلك الكنز الهائل الى بلادهم ، حيث تلقاه ملكهم شارل العاشر ورجال حكومته بمظاهر الفرح والابتهاج •

وبلغت قيمة ما دخل خزائنتهم بعملية السطو تلك ، ثمانية عشر مليارا من الفرنكات • ولما انتهى الفوز ، لم نزد نفقات الحملة التي قامت به على ثمانية واربعين مليونا ونصف مليون من الفرنكات فقط !

ولما اضافوا الى ثمرة سطوهم قيمة الدين الذي تخلصوا منه ، وهو ستة مليارات من الفرنكات ، وجعلوا انهم قد استرجعوا نفقات الحملة ، وربحوا نحو أربعة وعشرين مليارا ، أمر الملك بأن يستعان بها لسد العجز في الميزانية ، وانقاذ الدولة من الافلاس •

وظنوا أن الامر قد استتب لهم في الجزائر ، بعد ان دخلوا عاصمتها ولكن ظنهم خاب وآمالهم تبددت •

فقد استأنف الشعب الجزائري القتال ، وتنادى السكان في المدن والقرى الى حمل السلاح • وحشدت القبائل جموعها ، واستمرت الحرب قائمة على قدم وساق •

ووجد الامير عبد القادر بن محيي الدين صفوف مواطنيه وقادهم في جهادهم الرائع • وكان ولدا بو عمران ونفيسة بين المجاهدين الذين حاربوا تحت لواء البطل العظيم •

ودارت الايام دورتها ، وتوالت الاعوام • فقتل واحد من الاخوين في ثورة نشبت ضد الفرنسيين في سنة ١٨٥٧ ، بعد رحيل عبد القادر عن وطنه •

وفي سنة ١٨٦٣ ميلادية الموافقة لسنة ١٢٧٩ كان الامير الجزائري يقيم في دمشق ، التي اتخذها مقرا له في منفاه ، وهناك لحق به قاسم بو عمران ، أخ الشهيد الذي سقطا على أرض الجزائر ، والباقى على قيد الحياة • من اسرة بطول القصبة ، الذي نسف الحصن على رموس الفرنسيين في سنة ١٨٣٠ ، ودفن نفسه مع زوجته تحت انقاضه •

وقضى قاسم بقية حياته في دمشق ، مع المغاربة الذين التفوا حول

أميرهم وقائدهم السابق ، وأنشئوا في المدينة العريضة حيا عرف باسمهم  
وتناسلوا وتكاثروا ..

أما وطنهم الجزائر ، فقد ثار مرة بعد مرة ، وسنة بعد سنة ، على  
الاغراب المفتصبين . وكان الثائرون ، كلما أخذت لهم ثورة ، عادوا ،  
أو عاد أبناؤهم ، أو عاد أحفادهم الى إشعال غيرها ، والثقة تملأ نفوسهم  
بأن يوم النصر لابد آت لا ريب فيه ، وإن الحرية بنت الجهاد ، وإن الحق  
لا يضيع مادام صاحبه يطالب به ، والسيف بيده .





# توكرت غادة الوادي

---

اسمها « توكرت » ولكن  
المعجبين بها كانوا يسمونها  
« البهجة » ويصفونها بأنها  
« غادة وادي الريغ » .



الى الجنوب من مدينة قسطنطينية بالجزائر ، وفي جوف الصحراء  
يمتد وادى يعرف بوادى الريخ على مسافة كبيرة ، تتخللها  
سلسلة من الواحات الخضراء والجداول والآبار ، وتكتنفها  
غابات من النخيل يصعب على النظر أن يدرك مداها ، وعلى طول الوادى،  
تقع المدن والقرى والمزارع ، فى ظلال الاشجار وحماية الهضاب .

وأهم الواحات وأكبرها ، فى وادى الريخ ، مدينة « توكرت »  
وملحقاتها . حيث يبلغ عدد السكان نحو خمسة وثمانين ألف نسمة ،  
معظمهم من البربر المستعمرين ، وهم يفاخرون بمدينة توكرت ،  
وقصبتها أى فلعتها ، ومتاجرها الفاصلة بمختلف السلع ، وعشرات المآذن  
التي تختفى فضاءها ، وينطلق من شرفاتها ، خمس مرات فى اليوم ،  
النداء النجوى : « حى على الصلاة ، حى على الفلاح ! »

كان اسمها « النزلة » لا « توكرت » وللاسف الذى تعرف به اليوم  
قصة مثيرة ، يرويها لك المطلعون من السكان ، لو جالستهم فى أمسياتهم  
حول المواقد أو المناسف . ويخيل اليك ، وأنت تصفى الى روايتهم ،  
ان فيها مزيجا من الحقيقة والخيال ، ومن التاريخ والاسطورة .

النزلة بلدة قديمة ، لا يمكن تحديد الزمن الذى انشئت فيه ،  
ولا معرفة القوم الذين انشئوها فى وادى الريخ . وكانت قد بلغت درجة  
من الازدهار عظيمة ، يوم دخلها الاسلام ابان انتشاره فى اقاليم افريقية  
الشمالية ، فاعتنق سكانها وجيرانهم فى قرى الوادى وواحاته الدين  
المجديد ، فوجا بعد فوج ، وامتزجت لغتهم البربرية الاصيلة بكلمات  
عربية تزايدت مع الايام . وفى أوائل القرن الهجرى التاسع - الموافق  
للقرون الخامس عشر للميلاد - كانت البلدة تختار حكامها من رجال  
الدين أنفسهم ، فيتولون فيها السلطتين الروحية والزمنية فى آن  
واحد .

فى ذلك الوقت ، كانت تعيش فى النزلة امرأة شابة على جانب  
كبير من الجمال الاخاذ توقع الشبان والكهول - وحتى الشيوخ - فى

شراك حسنها ، فيتوافدون عليها من جوانب الوادى ، ويغدقون عليها  
لأموال والهدايا ، مقابل ما توفره لهم من أسباب اللهو والتسلية .

اسمها « توكرت » ولكن المعجبين بها سموها « البهجة » وكانوا  
يصفونها بأنها « غادة وادى الريح » .

شاع الفساد بسببها . فقرر الشيوخ المسئولون عن صيانة الأمن  
وسمعة البلدة ، أن يبعدوا الغانية عن النزلة تخلصا من الفتنة ، فأنذروها  
بالرحيل ، ولم تمنع توكرت فى تنفيذ الانذار ، ولكنها انتقلت الى ظاهر  
البلدة ، حيث نصبت خيمة اسستقرت فيها ، فجاءت النتيجة على غير  
ما كان الشيوخ يأملون !

أصبحت الخيمة المنصوبة خارج البلدة ملتقى العشاق العديدين ،  
ومقصد طلاب اللهو من سكان النزلة . وبدءوا الواحد بعد الآخر ينصبون  
خيامهم حولها ، ويهجرون منازلهم للاقامة فى ذلك المكان الذى اتخذته  
الغانية الساحرة مقرا لها ، ومرنعا لعشاقها .

وفى ذات يوم ، مر ببلدة النزلة رجل معروف بالصلاح والتقوى ،  
يقضى أيامه متنقلا بين واحات الصحراء وقراها ومضاربها ، ويعتمد فى  
كسب رزقه على كرم الضيافة وعطاء المحسنين .

الناس يعرفونه باسم « بوجملين » لأنه يركب جملا ويقود آخر  
محملا بزاده ومتاعه .

لم يستضفه أحد من سكان البلدة فى ذلك اليوم ، ولم يفتح فى  
وجهه باب ، ولم تمتد اليه يد باحسان . فواصل الرجل السير ولما ابتعد  
عن المنازل كان الليل قد أقبل ، فطرقت أذنيه أصوات ترتفع بالغناء  
والصياح ، فمشى فى اتجاه مصدرها ، وإذا به يصل الى الخيمة التى كانت  
« توكرت » فى تلك الليلة تقيم فيها حفلة صاخبة ، ظنها الرجل فى بادئ  
الأمر عرسا تزف فيه إحدى حسان البلدة الى زوجها !

دعى الى الدخول فدخل . وهبت الغانية ترحب بالضيف وأخذته  
من يده وأجلسته فى مكان الصدارة . فآكل وشرب وقضى الليل فى  
ضيافة « توكرت » وأصحابها ، وفى صباح اليوم التالى ، رفع بوجملين يديه  
الى السماء داعيا للمرأة بطول العمر ، وقال وهو يودعها : « لقد فهمت  
حقيقة امرك مما رأيته وسمعتنه فى هذا المكان . فأطلب من الله أن يهديك  
سواء السبيل ، ويحول خيمتك هذه الى دار عامرة ، والخيام التى تحيط  
بها الى منازل غاصة بالاسر السعيدة ، مكافأة لك على حسن ضيافتك » .



الامير عبدالقادر الجزائري  
في تنبائه كما رسمه شابلن  
فرنسي وقع في الاسر

وان يخلي من سكانها تلك البيوت التي تصد المسافرين وتغلق أبوابها في  
وجوه الغرباء ٠٠ وأن يجعلك تمونين ميتة الصالحين ! »

وابتعد الرجل التقى الورع بحمليه ، واختفى في طيات الصحراء !  
واستجاب الله لدعائه !

فلم تمر أشهر على ذلك الحادث ، حتى وصل الى النزلة حاج مغربي  
في طريقه للمرة الثانية الى أرض الحجاز المقدسة ، فسمع بقصة المرأة  
الضالة وزيارة بوجملين ودعائه ، وعلم أن توكرت بدأت تفسير سيرتها ،  
وتلتبس طريق الصلاح ، وتبذل المال للفقراء بلا حساب ، وتدعو عشاقها  
الكثيرين الى تشييد المنازل محل الخيام ، والانصراف فنيئا فشيئا عن حياة  
اللهو والعريضة !

وقال الحاج المغربي محمد بن يحيى : « لن أواصل السير الى الحجاز ،  
بل سأبقى هنا ، لأخذ بيد الغانية في سبيل توبتها ، وأصلي الى الله لكي  
يهدى الضالين جميعا ، ويرعى بعين عنايته هذه البلدة الصغيرة الجميلة ! »  
وتمت بقية المعجزة على يد الحاج محمد بن يحيى المغربي !

تأبّت « توكرت البهجة » الى الله توبة كاملة • وأصلح العشاق سيرتهم • ووضعت الغانية النائية أموالها وحليها ونقودها تحت تصرف الرجل الصالح الثاني ، بعد أن أصغت الى نصائح الرجل الصالح الاول • فانفق محمد بن يحيى ثروة المرأة في سبيل الخير ، وشيد بين المنازل مسجداً ، وبجوار المسجد مضيقة ، والى جانب المضيقة مدرسة •••

وتحولت حياة اللهو في البلدة الجديدة عن مجراها السابق ، وتغيرت معالمها ، وقرر عشاق «غادة الوادي» أن يطلقوا اسمها على البلدة التي انشئوها مكان خيامهم خارج نطاق النزلة • ومنذ ذلك الوقت ، بدأت النزلة تخلو من سكانها ، وعرفت البلدة الجديدة باسم « توكرت » وأصبحت مع الزمن جديرة بأن توصف ، كما كانت توصف الغانية التي أعطتها اسمها ، بأنها : « غادة وادي الريخ ا »

أدى محمد بن يحيى رسالته على أحسن وجه • ولما وافاه الاجل ، أسلم الروح قرير العين ، بعد أن رأى المرأة التي تولى اصلاح سيرتها ، وقد تخلصت من الرزائل والعيوب ، تتحلى بأحسن الصفات وأجمل الفضائل •

وشيد له سكان البلدة الجديدة ضريحاً تعلوه قبة ، لا يزال الى الآن يعرف ، في توكرت بوادي الريخ ، باسم مقام « المرابط سيدي محمد ابن يحيى » واليه يحج طلاب البركة من جوانب الصحراء •

ولحقت توكرت بالرجل الذي أخذ بيدها الى طريق الهداية - بعد وفاته بقليل - تاركة خلفها ذكرى معطرة مكرمة ، وبلدة تحمل اسمها ، قدر لها أن تصبح، فيما بعد مدينة كبيرة، وأن تتمتع بالازدهار والرخاء •••

ومرت أعوام ••• ثم تلتها أعوام •••

ونزل بوادي الريخ قحط شديد • وعجز ولاة الامر في توكرت عن إبعاد شبح الفاقة والجوع عن مدينتهم ، وعن غيرها من واحات الوادي ، وظنوا ان نهايتهم قد اقبلت ، وراحوا يثضرعون الى الله لينقذهم مما هم فيه من بؤس وشقاء •••

وذكروا مرور بوجملين في بلدتهم ، وتوبة الغانية التي اهتمت واهتدى معها الضالون جميعاً ، وبقاء سيدي محمد بن يحيى بين ظهرانيتهم ودفنه في توكرت •••

وساق الله اليهم ، مرة أخرى ، من يأخذ بناصرهم ويعيد الى أجسامهم الصحة والى نفوسهم الطمأنينة ••

وكان المنقذ في هذه المرة هو « سليمان المريني » وهو أيضاً من أبناء المغرب ... كان عائداً من الحجاز في قافلة لا نهاية لها ، تحمل الاموال والارزاق والسلح العديدة ، وبحرسها عشرات من الخدم والعبيد .

وصل المريني الى مدينة توكرت ، فهاله ما شاهده فيها من بؤس ، وما يعانيه سكانها من حرمان ، فقرر ان يبقى فيها ، وان يساعدوا على النهوض من كبوتها .

ولكنه أراد ، في الوقت نفسه ، ان يلقي على الناس درساً ، بعد ما علمه من انهم اساءوا التصرف في تدبير امورهم في عهد الرخاء ، فلما قلب لهم الدهر ظهر المجن ، لم يستطيعوا دفع الكارثة عن انفسهم ، ويواجهوا العاصفة ويخرجوا منها سالمين .

عرض على السكان امواله ، في مقابل ما يتنازلون عنه من حلى ومنقولات وممتلكات . فباع السكان ما يملكون ، ثم بلعوا نساءهم واطفالهم ورهنوا عند الرجل حريتهم ! .

وشيد المريني في وسط المدينة مسجداً كبيراً ، ويوم أداء الصلاة فيه للمرة الاولى ، وقف المغربي خطيباً في القوم فقال لهم : « ليكن ما حدث في مدينتكم وواديكم درساً لكم وعبرة . أما الآن ، فاني اعتق العبيد واعيد الى الجميع حريتهم وكرامتهم ، وكل ما اخذته منكم بئنه حالاً . وتعالوا تعمل معا يداً واحدة لكي تسترجع هذه المدينة سابق عزها وبهجتها ! » .

وارتفعت أصوات السكان بالهتاف والدعاء لسليمان المريني ، الكريم النبيل ، وبمبايعته أميراً على توكرت وملحقاتها في وادي الريخ .

وكان الناس قد سموه من قبل « الجلابي » باعتبار أنه جلب لهم الخير بوصوله مع قافلته الكبيرة الى مدينتهم خلال محنتها .

قبل سليمان المباشرة ، فكان اول أمير من الاسرة المعروفة باسم « الجلابة » أو « بني جلاب » والتي حكمت وادي الريخ مدة طويلة ، وحمل بعض أمرائها لقب « سلطان » وتحالفوا مع القبائل المجاورة ، أو اشتبكوا معها في حروب دامية ، لكي يحالفوها من جديد ويتكاتفوا معها لمقاومة الحملات العسكرية التي ارسلها حكام السواحل التابعون للدولة العثمانية لاختضاع سكان الصحراء أو سلب اموالهم ومنتجات أرضهم .

مرت بسلطنة توكرت ووادي الريغ ، خلال ثلاثة قرون ، عهود نيرة  
واخرى مظلمة ، عهود عم فيها الرخاء واخرى خيم فيها البؤس ، وايام  
سلم وايام حرب ، ولكن عدد السكان ظل يزداد عاما بعد عام كما ظلت  
مساحة الواحات تأخذ في الاتساع تمشيا مع ازدياد عدد السكان .  
وامتدت غابات النخيل الى مسافات بعيدة وأوقفت طغيان الرمال على  
المساكن ، وساعدت في نمو المراعى وتوفير الغذاء لقطعان الماشية . .

وفي القرن التاسع عشر الميلادي ، اقدم الفرنسيون على غزو  
الجزائر ، فأرسل سكان وادي الريغ متطوعين منهم ثلاثين في الدفاع  
تحت راية أمير المجاهدين عبد القادر بن محيي الدين الجزائري . ودوخ  
مجاهدو توكرت الفرنسيين . . .

وفي سنة ١٨٥٤ ميلادية الموافقة لسنة ١٢٧٠ هجرية - سقط  
الوادي الحبيب في قبضة الغزاة الأعراب . ولكن مدينة توكرت ظلت  
شسوة في جنوبهم . واسهمت في النورات المتوالية التي كانت ارض  
الجزائر ميدان لها . . .



# قبة سیدی الشیخ

أقسمت أن تنتقم لوطنها ..  
فصحت بقلبها على أرض المعركة  
.. تحت قبة سيدی الشیخ



عشرون سنة قضاها القوم في قتال الغزاة الفاتحين . لم يهدأ لهم بال ، لم يفتر لهم عزم ، لم يتسرب الوهن الى نفوسهم ، لم يخدعهم وعد ولم يرهبهم وعيد . خلال تلك السنوات العشرين التي سطا فيها الموت على شيوخهم ، وسقط فيها الكهول في حومة الوفى والسلاح بأيديهم ، فحل محلهم الشبان ، لكى يحل الاحداث قيما بصد محل الشبان .

عشرون سنة قضاها الرجال المنتمون الى «قبائل اولاد سيدى الشيخ» على متون الحيل وظهور الجمال .

كانت ثورة « اولاد سيدى الشيخ » أطول ثورة نشبت على ارض الجزائر ، ضد الفرنسيين المعتدين ، منذ أن نزلت جيوشهم في خليج سيدى فرج ، فى سنة ١٨٣٠ ، الى أن انتهى حكمهم فى عام ١٩٦٢ ، بعد ثورة استمرت سبعة أعوام ونصف عام .

فى اوائل القرن الحادى عشر للهجرة ، الموافق للقرن السابع عشر للميلاد توفى « سى عبد القادر الشيخ » التقى الورع ، ودفن فى بلدة الابيض ، على النهر المعروف بهذا الاسم فى جنوب وهران ، وشيدت على قبره قبة ، وأنشئت حوله زاوية ، وعرف المكان منذ ذلك الوقت باسم « الابيض سيدى الشيخ » ، وأصبح مزارا يحج اليه الناس من جميع أنحاء الجزائر . ومن تونس والمغرب .

هاجم الفرنسيون الجزائر . وتمكنوا من تثبيت أقدامهم على الساحل . وشرعوا فى الاتجاه الى الداخل . فتصدى لهم الامير عبد القادر بن محيى الدين فى سنة ١٨٣٢ ، وانطوت القبائل تحت لوائه ، فسار بها من معركة الى معركة ، وظل القتال مستمرا بقيادته خمسة عشر سنة كاملة .

واخذ اولاد سيدى الشيخ نصيبهم من الجهاد ، فالتحق منهم مئات بقوات الامير البطل . ولجأ عبد القادر الى ربوعهم أكثر من مرة ، ليعيد تنظيم جيشه ، ويعاود الكرة على الاعداء .

وتجمع اولاد سيدى الشيخ فى جنوب اقليم وهران ، واستفر  
زعمائهم فى بلدة الابيض سيدى الشيخ حيث القبة والمزار .

وفى مساء يوم من أيام الشتاء سنة ١٢٧٦ هجرية - ١٨٦٠  
للميلاد - داخل دار صغيرة فى ظاهر البلدة ، دار حديث مثير بين فتاة  
فى نهاية العقد الثانى من العمر ، وشابين أكبر منها بقليل .

قصت حليلة بنت سى ابراهيم على ابنى ممها ، حسن بن سى عمر  
وقاسم بن سى عمر ، ما حدث لها فى مدينة وهران ، مما حملها على  
الهرب والاتحاق ببنى قومها فى مقرهم المنعزل .

كان ابوها سى ابراهيم المعروف بالعنابى على خلاف مع أسرته  
واقام فى وهران حيث تزوج امرأة فرنسية أنجبت له ابنه عبد السلام  
وابنته حليلة . ولم يكن هذا النوع من الزواج قد تفشى بعد فى الجزائر .  
وفى الوقت الذى كان فيه الجفاء يستحكم بين سى ابراهيم وأفراد أسرته ،  
كان الفرنسيون يحاولون بشتى الوسائل أن يستميلوه اليهم ، ليستعينوا  
به فى تهدئة النفوس الثائرة عليهم . وكانوا يعتقدون أنه بوسعهم أن  
يؤثروا عليه بواسطة زوجته الفرنسية « كليمانتين بورجوا » .

ولكن الرجل الذى وهب قلبه لامرأة فرنسية لم يبع نفسه لقومها ،  
ولم يسخر ضميره لخدمتهم . وقد رفضت الزوجة من جهتها أن تكون  
أداة طيبة فى أيدي الذين أرادوا أن يستغلوا زواجها ، بأن تدفع بالرجل  
الذى اصطفاه رقيقة حياته ، فى طريق الضلال .

وحدثت ذات يوم فتنة فى وهران - وكانت الفتن متتابعة  
متوالية - فاحتفى ثلاثة شبان كان الجنود يطاردونهم فى بيت ابراهيم  
العنابى ، واقتحم الجنود البيت ، فدافع صاحبه عن الشبان الذين  
استجاروا به ، ورفض أن يسلمهم لطارديهم . وتضامنت معه أسرته ،  
عملا بالتقاليد المتوارثة عند العرب . ولم يشذ مسلك الزوجة الفرنسية  
عن مسلك زوجها وابنته وابنته . فدارت فى داخل البيت معركة استشهد  
فيها الشبان الثلاثة وأفراد الأسرة ، وتمكنت حليلة وحدها من النجاة ،  
ولكن بعد أن قتلت بيدها واحدا من الضابطين اللذين قادا حملة المطاردة ،  
كما قتل رفاقها ، قبل استشهادهم خمسة من الجنود .

والضابطان هما الاخوان جان وجاك فردييه . قتلت حليلة الاول .  
وحاول الثانى اللحاق بها ولكنها أفلتت منه ، وتوارت فى أزقة المدينة ،



قافلة في صحراء الجزائر في القرن الماضي

ثم ابتعدت متجهة الى القوم الذين تنتمى اليهم اسرتها ، اولاد سيدي الشيخ .

روت حليلة على مسامع ابني عمها ، حسن وقاسم تفاصيل ذلك الحادث الدموي ، وكيف أنها علمت ، قبل الرحيل عن وهران ، ان جاك فردييه وجنوده حملوا جثث القتلى من رفاقهم ، ثم اضرعوا النار في بيت سي ابراهيم العنابي فانت عليه ، وتحول الى قبر للشهداء العرب الذين التهم الاتون المتأجج جنتهم .

ـ والآن يا حسن ، والآن يا قاسم ، جثث اليكما يتيمة وحيدة ، فانتما سندی الباقي في هذا العالم . وقد اقسمت ، وانا في طريقي اليكما ، ان اقف حياتي للاخذ بشار الاعزاء الذين قتلهم اولئك الاغراب امام عيني ، ابي الذي كان على خلاف معكما ومع قومنا ، وامى الفرنسية

التي كنتم جميعا تكرهونها لاعتقادكم أنها غررت بأبي ، وقد أثبتت أنها كانت وفية للأسرة التي أصبحت عضوا فيها ، وأخي التوأم الذي قتل اثنين من المعتدين ، والمواطنون الثلاثة الذين استجاروا بنا فحسيناهم وأفنييت أسرتنا في سبيلهم فهل تقران ما صنعت ، وهل تقسمان معي على الأخذ بالثأر ؟

فأجاب الشبان معا ، وبكلمة واحدة : « نعم ! » .

واحتضن كل منهما ابنة عمه حليلة ، ثم تشابكت أيدي الثلاثة ، وانبعثت من بين شفاههم عبارات القسم الذي قطعوه على أنفسهم بالعمل معا ، وهو القسم الذي ارتبطت به حليلة بنت سي إبراهيم ، وهي في طريقها إلى قبة سيدي الشيخ ، في بلدة الأبيض .

وفي الوقت نفسه ، هناك ، في وهران ، كان الضابط جاك فردييه ، أخو الضابط جان فردييه يقسم من ناحيته ألا يعود إلى بلاده قبل أن يعثر على الفتاة التي قتلت أخاه بيدها ، فيقتلها بيده .

لم يطل انتظار حليلة في البلدة التي آوت إليها بعد المحنة التي حلت بها . فقد شاءت الأقدار أن تتيح للفتاة فرصة العمل في سبيل ثارها ، في العام التالي لوصولها إلى المزار الذي كان بنو قومها يحجون إليه ، ويمقدون حوله حلقاتهم ، ويعدون فيه العدة لثورتهم الكبرى .

في جنوب وهران ، داهم أولاد سيدي الشيخ قافلة فرنسية محملة بالارزاق والأسلحة في صيف سنة ١٨٦٢ ميلادية ، الموافقة لسنة ١٢٧٨ للهجرة ، ففتكوا بها ، واستولوا على حمولتها ، وكان يقودهم في تلك الفزوة حسن بن سي عمر ، وقاسم بن سي عمر ، ومعهما حليلة الفتاة الناقمة الفاضية . وفي تلك المعركة الصغيرة ، قتلت حليلة الضابط الفرنسي الذي كان يقود القافلة ، وقالت بعد أن عاد رفاقها إلى قاعدتهم منتصرين :

— هذا واحد .. وبقي أن أقتل خمسة آخرين من الضباط ، واحدا مقابل كل قتيل من الشهداء الستة الذين سقطوا في بيت أبي بوهران ... فإن الجنود الذين يقتلون بيدي أو بيدي غيري من بني قومي ، لا يحسب لهم حساب . والضباط وحدهم هم الذين يحسب لهم حساب ...

وهمس ابن عمها حسن في أذنها :

- يا حليلة .. لقد كاشفتك بحبي على أثر عودتك الى حمى القبيلة ، بعد مأساة وهران ، أفلا ترضين بأن تصبحي زوجة لى الآن ، وقد تم لك من الثأر الذى تسعين اليه جزء واحد من ستة أجزاء .

وأجابت حليلة :

- أما أجبتك يا ابن عمى ، يوم كاشفتنى بحبك ، بأن همى الوحيد منصرف الآن الى تحقيق ذلك الثأر الذى أنشده ، وان هذا أيضا يجب أن يكون همك أنت ... وان حبنا ، اذا تكلل بالزواج بعد الثأر للشهداء ، يكون مفعما بالسعادة والهناء ، أكثر منه لو تزوجنا الآن ، وانصرفنا الى الاهتمام بحبنا ، وأهملنا الواجب الذى ارتبطنا به بالقسم المشترك !!

وجدت حليلة نفسها فى أزمة عاطفية جارفة . ان ابن عمها الاكبر حسن بن سى عمر ، يحبها حبا عنيقا . وهى تشعر ، بسليقة الانثى ، ان عاطفة خفية تختلج أيضا فى صدر ابن عمها الاصغر ، قاسم ابن سى عمر ، فيحاول كتمانها ، لانه لا يريد ان تقوم بينه وبين أخيه منافسة على فتاة واحدة ، هى ابنة عم الاثنين معا . وأدركت حليلة ان الوسيلة الوحيدة لصرف الاخوين عن التناحر من أجلها ، هى ان تدفعهما فى طريق الجهاد ، من أجل الوطن الجزائرى من ناحية ، ومن أجل ثراها المقدس ، من ناحية أخرى .

وفى سنة ١٨٦٤ ميلادية ، الموافقة لسنة ١٢٨٠ للهجرة ، زحفت على قبائل سيدى الشيخ قوة فرنسية يقودها السكولونيل بوبريتر . فهاجمها فرسان سيدى الشيخ بقيادة سى سليمان ، وأنفوها عن آخرها فى عين بوبكر ، وسقط قائدها نفسه قتيلًا فى حومة المعركة ، وكان الاخوان حسن وقاسم ومعهما حليلة فى صفوف المهاجمين ، وتم لحليلة ان تحقق بعض ثارها ، فقتلت بيدها واحدا من ضباط الحملة ، ولكن ابن عمها الاكبر العاشق ، أصيب بجرح مميت لم يقدر له الشفاء منه ، ففاضت روحه فى ميدان القتال ، بعد هزيمة الفرنسيين ، وكانت كلماته الاخيرة لآخيه وابنة عمه :

- انك تعرف يا قاسم اننى أحب حليلة . فهى بعد الآن امانة بين يديك ، ولتكن زوجة لك ، بعد أن تصبح فى حل من قسمها !

وعاكست الاقدار العاشقين .

ظلا يشتركان فى المارك ، ويقاثلان بشجاعة واقدام ، ولكن الحظ

خان الفتاة المجاهدة فتوقف عدد ضحاياها عند الاربعة الذين فتكت بهم .  
وفى سنة ١٨٧١ للميلاد الموافقة لسنة ١٢٨٧ للهجرة ، تضامن  
الشائرون من أولاد سيدى الشيخ مع الشائر المقراني ، وفى معركة دارت  
رحاها فى غرب وهران ، قتلت حليلة ضابطها الخامس وبقي عليها مرحلة  
واحدة للبر بقسمها كاملا !  
وعاد الحظ يعاكسها ...

أعوام أخرى انقضت ، والشباب والفناء يعملان للهدف المشترك الذى  
يسعيان اليه ...

وأولاد سيدى الشيخ يواصلون صراعهم الرهيب ، ضد قوات  
متزايدة ، واسلحة فائكة ، وعناد يتسم به العدو الذى كانت الامدادات  
تصل اليه تباعا من فرنسا .

صبر قاسم ، وصبرت حليلة ، عشر سنوات أخرى .  
وفى سنة ١٨٨١ للميلاد ، الموافقة لسنة ١٢٩٨ للهجرة ، وقعت  
معركة بين الشائرين وحملة فرنسية فاستشهد فيها قاسم بن سى عمر ،  
قبل ان يتحقق الحلم العاطفى الذى عاش له . وبقيت حليلة وحيدة  
فى الدنيا ، بعد ان فقدت ذويها جميعا .

وبعد أسابيع من المعركة ، زحفت قوة فرنسية كبيرة ، بقيادة  
الكولونيل نيجريه ، على بلدة الأبيض .

وتجمع أولاد سيدى الشيخ للدفاع عن عرينهم . ونزلت حليلة  
الى الميدان مع المجاهدين من بنى قومه .

وفى حومة المعركة ، وجدت الفتاة نفسها وجها لوجه مع الفريم  
الذى بحثت عنه ، وبحث منها ، خلال السنوات العشرين التى انقضت  
على مأساة وهران .

ذلك الفريم هو الضابط جاك فرديه اخو الضابط جان فرديه .  
اذن ، سيكون معنى السادس . كان يقاتل والسيف بيده . وكانت حليلة  
تقاتل بخنجر اهداه اليها ابن عمها قاسم وهو يسلم الروح بين يديها .  
ألقت الفتاة الخنجر من يدها وصاحت صيحة مدوية ، ووثبت  
على الرجل الذى عرفته وعرفها ، فبادرها بضربة من سيفه ، وتعلقت  
الفتاة به ، وانشبت إغافرها فى عنقه ، ودار بين الاثنين صراع رهيب ،



وسط الدخان المتصاعد من الحرائق . فقد أمر الكولونيل نيجريه بأن  
تضرم النار في زاوية سيدى الشيخ وقبتها والدور المحيطة بها ، ظناً  
منه انه يقتل روح المقاومة في نفوس القوم ، بتدمير قاعدتهم ، وتخريب  
المزار الذى يرقد في ترابه جدهم الاعلى .

وهمدت النيران . وابتعد المعتدون عن ذلك المكان المقدس الذى  
دنسوه وأحرقوه ، حاملين معهم القتل والجرحى من رجالهم .

وبين الجثث ، عثروا على جثة الضابط جاك فرديه ، وبجانبا جثة  
امراة يتدفق الدم من جرح بليغ في صدرها ، وقد أطبقت يديها على  
عنق الضابط فازهقت روحه ...

ماقت حليلة بنت ابراهيم العنابى بعد ان تم لها نازها وبرت  
بقسمها . ولكنها لم تنعم بالحب الذى آثرت عليه القتال والجهاد ، في  
سبيل وطنها وفى سبيل قومها !

وبعد ثورة اولاد سيدى الشيخ ، التى استمرت عشرين عاما  
وانتهت في تلك السنة ، أميد بناء الضريح ، وتشبيد المزار ، وارتفعت  
في الفضاء من جديد « قبة سيدى الشيخ » في بلدة الابيض ..



# البطل الضريب



فقد حامل العلم عينيه ،  
فتلقت العلم منه زوجته ،  
وفقدت ذراعها اليمنى فرشته  
باليسرى !



بعد أداء صلاة الفجر ، وقد بدأ الليل يرفع رواقه عن دمشق  
الفيحاء ، وأسواقها الضيقة ، وبيوتها الهائلة ، وغوطتها الخضراء، أخذ  
الأمير عبد القادر بن محيي الدين الجزائري مجلسه في صدر القاعة  
الفسحة ، وحوله أفراد أسرته الكبيرة ، في ذلك الصباح البهيج ، صباح  
عيد الاضحى المبارك ، لسنة ١٢٨٠ هجرية ، الموافقة لسنة ١٨٦٣  
للميلاد .

كان البطل الخالد ، الذي اختار المدينة الخالدة مقرا له ومنفى،  
شديد الحرص على الاحتفال بالاعياد كلها ، احتفالا جديرا بمعانيها  
السامية . فيها يلتئم شمل الأسرة ، ويجتمع رفاق الأمير الذين هاجروا  
معه حول عييدهم . فتتجرع الدبالج وتوزع الصدقات ، وترسل الهدايا  
على نفس المجاهدين الذين استشهدوا في المعارك ، هناك ، في جبال  
الجزائر ووهاها وبواديها ، خلال الحروب التي خاضوا غمارها ضد  
الغزاة الفرنسيين .

في تلك المواسم ، كانت الذكريات تتراحم - ذهن الرجل الذي قاد  
أولئك المجاهدين في ساحات الشرف ، والمشاعر المتباينة تتلاطم في  
صدره ، فيروى من الذكريات ما يلائم المقام ، ولا يقوى دائما على كظم  
المشاعر ، فتعبر عنها دموع تنفر من عينه ، وتساب على خده !

ما أن أطلت شمس ذلك اليوم ، وجعلت خيوطها تداعب المدينة  
المبكرة في صحوها ، حتى توافد الناس على الدار الرحبة ، المسيحية منهم  
يسابق المسلم ، والغنى يصطحب الفقير ، والأبناء يرافقون آبائهم ، وقد  
جاءوا مسلمين مهئين جريا على العادة التي اتبعها الدمشقيون ، منذ  
اليوم الذي حل فيه الجزائريون بين ظهرانيهم « فاطلقوا على المكان الذي  
نزلوا فيه اسم « حى المغاربة » كما كانوا يسمونهم .

طاف الخدم على الزائرين بأكواب الشربات وأطباق الحلوى ،  
وراح أفراد الأسرة يتنقلون بينهم مستقبليين مرحبين ، وانطلقت الأسئلة  
من الأفواه ، موجهة الى رب الدار ، وبعضها مكرر للمرة العاشرة أو  
اكثر . والأمير يرد عليها كلها ، ببشاشة وفصاحة ولباقة .

وفجأة ، ارتفعت في الخارج جلبة ، واقتربت من القاعة ، ورن في آذان الحاضرين صوت نسائي متهدج يقول بلهجة مغربية واضحة : « هذه هي اللحظة التي نسعى إليها منذ سنتين ! »

ولفتت الانظار الى الباب ، وقد ظهرت فيه امرأة فارعة القامة ، تقود رجلا فارع القامة مثلها ، أدرك الناظرون اليه في الحال ، أنه ضريح فقّدت عيناه النور ، وأن المرأة التي معه تسنده بيدها اليسرى ، وأن ذراعها اليمنى مقطوعة من جملها !

تقدم الاثنان وقد طفح وجهاهما بالبشر والغبطة ، فاخترقا القاعة بطولها ، ووصلوا الى حيث الامير متربع على الوسائد ، وأكبا على يديه يغمرانها بالقبلات ويبللانها بالدموع ، والحاضرون يتبعونهما بانظار تنم عن الدهشة والفضول .

ثم شخصت الابصار الى عبد القادر ...

وسمع صوته خافتا وهو يتمم اسمين ويكررها : « ابراهيم ! .. فاطمة ! ... ابراهيم ! .. فاطمة ! .. »

ساد الصمت بضع دقائق ...

وارتفع صوت الامير مرة اخرى ، ساكلا :

— من أين أنتما قادمان ؟

وأجابت المرأة :

— من تونس يا مولاي ...

— وكيف وصلتما هنا ؟

— مشيا على الاقدام !

— ومن دلكما على الطريق الى ؟

— الناس في كل مكان يعرفون مقرك .

ومن كل مكان حملونا اليك أطيب التحيات !

— متى تركتما تونس ؟

— خرجنا من مدينة قابس منذ سنتين . وقطعنا البر كله ، في



مهركة سيدى إبراهيم سنة ١٨٤٥ ( افرسام فرنسي )

محاذاة الشاطئ ، فمررنا بطرابلس ، وبرقة ، وبر مصر ، وبلغنا جبال  
لبنان ، ومنها هبطنا الى الشام للقاءك فيها .

ومسحت المرأة دموعها ، وارتسمت على شفتيها ابتسامة عبرت  
عن لرحها وسعادتها ، ثم قالت بصوت جهورى :

— والآن ، لا يبقى علينا الا ان نستقبل الموت ، فقد تحققت الامنية  
الوحيدة التى عشنا من أجلها ، منذ خروجنا من الوطن الجريح !

فى تلك الجلسة ، بدار الامير عبد القادر الجزائرى ، بدمشق  
الفيحاء ، عرف الدمشقيون قصة البطولة ، التى أفقدت فيها ذلك  
الرجل نور عينيه ، وأفقدت زوجته ذراعها اليمنى .

روى القصة بطلها ، وسأعده في الرواية بطلتها ، وكان عبد القادر من وقت الى آخر ، يفسر العبارات والكلمات المغربية ، التي تجيء على لسان الراوى أو الراوية ، ويتعذر على السامعين فهمها .

كان ذلك في سنة ١٢٦١ هجرية ، الموافقة لسنة ١٨٤٥ للميلاد . تدفقت الجيوش الفرنسية الجرارة على الجزائر خلال الاصوام السابقة ، وقاومها المجاهدون الجزائريون بقيادة الامير عبد القادر خمس عشرة سنة كاملة .

كان النصر ينتقل من صف الى صف ، ومن جهة الى اخرى . في تلك السنة ، تراجع المجاهدون أمام كثرة العدد ووفرة العدة ، واتخذوا مواقع جديدة على الحدود ، بين الجزائر والمغرب ، وراحوا من هناك يشنون هجوما بعد آخر على تجمعات الفزاة ، المعتدين ، ويلحقون بهم الخسائر بالارواح والعتاد ، ويغنمون منهم الاسلحة كيواصلوا بها قتالهم ...

وفي شهر سبتمبر من سنة ١٨٤٥ ، حشد الفرنسيون قوة ضاربة في بلدة « سيدى ابراهيم » التي تعرف بهذا الاسم نسبة الى القبة التي تعلق ضريح المراتب سيدى ابراهيم ، وهو من اولياء الله الصالحين ، جاء الى الجزائر من الاندلس ، وانشأ في ذلك المكان زاوية كان يلقي فيها دروسه الدينية ، فتحولت بعد موته الى ضريح يضم رفاتة ، ويتبرك الناس بزيارته .

عول المجاهدون على استرجاع ذلك الموقع المقدس من غاصصية ، فزحف عبد القادر على رأس قوة من رجال القبائل ، واحتل مرتفعات جبل كركور ، على مقربة من بلدة سيدى ابراهيم .

والتحقت النساء بالرجال ، لأخذ نصيبهن من الجهاد ، فاختلطت زغاريدهن بأهازيج الحرب .

ادرك العدو الخطر المقترب منه ، وقرر أن يتفاداه قبل أن يحدق به . فتحركت قوة فرنسية نحو المرتفعات التي اعتصم فيها الجزائريون .

وفجأة انحدر الجزائريون صوب هذه القوة من سفوح الجبل ، وبأيديهم السيوف والبنادق . فالتحم الفريقان في قتال مرير ، وسالت الدماء غزيرة وارتفع الصياح عاليا . وفي بدء المعركة ، سقط مقاتل كان يحمل علم الامير عبد القادر في مقدمة الصفوف ، فالتقط العلم منه



واحد من رفاقه ، واذا بطلق نارى يصيبه فى احدى عينيه ، وطلق آخر يصيبه فى العين الثانية ، فيهوى على الارض ويهوى العلم معه ، فتشب امرأة كانت تسير معه جنباً الى جنب ، وتأخذ العلم فيرفرف مرة أخرى ، فيبادرها ضابط فرنسى بضربة سيف مزقت ذراعها اليمنى ، لكنها ظلت ممسكة بالعلم بالذراع اليسرى ، ودفع الضابط حياته ثمناً لضربته الصائبة ، فقد وجه اليه مقاتل جزائرى ضربة صائبة مثلها أردته قتيلاً !

حدث ذلك حول العلم فى دقائق معدودة ، وسط الهدير والضجيج ، وأحاط رفاق المرأة والرجل بهما ، وانتحوا بالجريحين ناحية أمينة ، بينما القتال يأخذ مجراه نحو نصر كلل فى ذلك اليوم المشهود شجاعة المجاهدين !

وقعت معركة جبل كركور فى الثالث والعشرين من شهر سبتمبر سنة ١٨٤٥ ميلادية - ١٢٦١ هجرية - وعند ظهر ذلك اليوم ، وصل جندي الى موقع الفرنسيين فى سيدى ابراهيم ، وقال وهو يلهث : « ماتوا جميعاً ٠٠٠ وانتهى كل شئ ! » ووقع على الارض يلفظ أنفاسه الأخيرة ؟

فقد أفنى المجاهدون الجزائريون القوة الزاحفة عليهم عن آخرها ! وزحفوا بدورهم نحو سيدى ابراهيم !

ضربوا الحصار على القوة الفرنسية المتحصنة فيها ، وانقضت ثلاثة أيام بين هجوم ودفاع ، فحاول الفرنسيون اقتحام الحصار وفكّه ، ليتجنّبوا الهزيمة ، وكان مصيرهم كمصير رفاقهم فى جبل كركور : الغناء التام !

تلك المعركة المزدوجة ، التى أحرز فيها عبد القادر الجزائرى ورجال القبائل نصراً مزدوجاً ، عرفت فى تاريخ الجزائر بمعركة « سيدى ابراهيم » فف فيها هلكت حملتان عسكريتان ، بجنودهما وضباطهما ، وكان قائد الحملتين ، الكولونيل مونتانيك ، بين قتل جبل كركور .

أما الرجل الذى التقط العلم من حامله القتيل ، والذى فقد فى سبيله عينيه ، فاسمه « ابراهيم الابراهيمى » وهو من سكان البلدة ومن حراس الزاوية . وقد أطلق عليه اسم « ابراهيم » تبركاً بصاحب الضريح ، وكنية « الابراهيمى » نسبة الى البلدة التى يقيم فيها .

وأما المرأة التى أخذت منه العلم بعد إصابته ، وفقدت فى سبيله ذراعها اليمنى ، فهي زوجته « فاطمة » .

وهما اللذان لحقا بالامير عبد القادر الجزائري بعد ثمانية عشر عاما من ذلك الحادث الرائع . والتقىا به في مقره بمدينة دمشق !

خان الحظ عبد القادر ، فكف عن مواصلة القتال ، تاركا هذه المهمة لغيره في داخل الجزائر ، سنة ١٢٦٤ هجرية ، الموافقة لسنة ١٨٤٧ للميلاد ، ومشى الى الاسر ثم ذهب الى المنفى على ضفاف البوسفور .

وخرج من الجزائر فريق من رفاقه في الجهاد ، وكان ابراهيم الابراهيمى وزوجته فاطمة بين الذين رحلوا الى تونس .

كان الرجل في نحو الخمسين من العمر ، وكانت المرأة في نحو الثلاثين .

قادت بعينيها البصيرتين خطواته المتعثرة ، وعلى ذراعها اليسرى تكأت ذراعه اليمنى ، في طريقه الى المنفى الذى اختاره لنفسه ولزوجته .

وصلا الى مدينة تونس . ومنها انتقلا الى مدينة قابس حيث وجدا بعض المواطنين من الجزائر . وقد رحلوا مثلهما عن البلد الذى اغتصبه الاغراب .

ومرت الاعوام تتلوها الاعوام ، بطيئة ، كثيئة ، بعيدة عن البهجة ولكنها غير خالية من الأمل .

واختلجت في صدر الزوج الضرير والزوجة الكتعاء أمنية أصبحت موضع اهتمامهما وموضوع تفكيرهما الدائم : أن تساعدتهما الظروف للحاق بالبطل العظيم الذى حارباً تحت علمه ، وذاقا نشوة النصر تحت قيادته .

كان عبد القادر قد انتقل من فرنسا الى بروصة ، ولما خرب الزلزال هذه المدينة التركية في سنة ١٨٥٥ ميلادية الموافقة لسنة ١٢٧١ هجرية قرر الذهاب الى دمشق ، واتخذها مقرا دائما له .

حمل الركبان الى تونس خبر وصوله الى المدينة السورية ، فقرر ابراهيم الابراهيمى وزوجته أن يستأنفا السير ، بعد تلك الاعوام التى قضياها في قابس . وأن يحاولا اللحاق بالامير في مقره الجديد .

ومشيا ... مشيا غير عابئين بشئ !

الطريق طويل ، ومخاطره كثيرة ، والمشقة كبيرة ، والرجل لا يبصر . والمرأة بذراع واحدة !

لكنهما تحملا المشقة ، وتعلبا على المخاطر ، وقطعا الطريق الطويل ،  
ووصلا في النهاية الى المحجة النسي كانا يقصدانها : دار الأمير الجزائري  
في دمشق !

ولما خطا الاثنان خطواتهما الاخيرة ، في نهاية الطريق ، وعند باب  
القاعة التي جلس فيها عبد القادر يتلقى تهاني الدمشقيين بعيد الاضيء ،  
تنفست فاطمة الصمداء ، وانبعثت من بين شفثها تلك العبارة التي  
أثارت الدهشة والفضول : « هذه هي اللحظة التي تسعى اليها منذ  
سنتين ! »

في ذلك اليوم ، لم يقص عبد القادر بن محيي الدين ذكرياته على  
زائريه جريا على عادته ، بل استمع معهم الى اثنين من أبطال جيل  
كركور ، وهما يرويان ذكرياتهما عن معركة سيدي ابراهيم .  
وأضاف الدمشقيون حفة جديدة من المعلومات ، الى ما كانوا  
يعرفونه عن حرب الجزائر !

وعبر عبد القادر عن اغتياضه بوصول البطل الضريح وزوجته  
الباسلة منالين الى دمشق . وقال لهما على مسامح من الحاضرين :

« انتما الآن هنا في بيتكما ، وبين أسرركما . وانه لمن معاسن  
الصدف أن التقى بكما بعد فراق طويل ، في هذا اليوم السعيد ، فيصبح  
العيد بالنسبة الى عيدين !

وعاش ابراهيم الابراهيمى وفاطمة في دمشق . في دار الاسرة  
الجزائرية . ومات الرجل في سنة ١٨٦٦ ، ونفقت به المرأة بعد  
ثلاثة أعوام ، ودفنت بجواره .

وكان القتال لا يزال مستمرا في داخل الجزائر ، يهدأ حيناً ثم  
يستأنف ، ولما توفي الأمير عبد القادر في سنة ١٨٨٣ ميلادية الموافقة  
لسنة ١٣٠٠ هجرية كانت الثورات القومية في الجزائر متواصلة ،  
وظلت كذلك ...



يحييت أميرة الصحراء

توكت مدينتها الزاخرة  
بأسباب التسلية ، ولقت  
بالرجل الذي أحبها الى بطن  
الصحراء ، حيث أشعة  
الشمس محرقة ، ورياح  
السموم تهب من كل صوب !



أن المسافر إلى مدينة الجزائر قاصدا إلى الصحراء ، سالتا في سيره الطريق إلى مدينة الأغواط ، يمر بقبة ضخمة عالية هي ضريح من أضرحة الأولياء ويسترعى نظره حول تلك القبة ، عدد الزائرين والمصلين ، الذين جاؤا من الحواضر والبادي ، للتبرك بذلك المقام الجليل .

وتزداد دهشته إذا ما اقترب من تلك القبة ، وتطلع إلى تفاصيلها ، لأنه يرى في أحد أركانها صليبا - وما عهدنا أضرحة الأولياء المسلمين تحمل الصليبان بين جدرانها !

وإذا سأل المسافر أولئك الزائرين ، لعلم منهم أن هذا أحد أضرحة آل التيجاني ، وقد دفنت فيه الأميرة « يمينة » أميرة الصحراء .

وقد ينبئهم أحدهم بمعنى وجود رسم الصليب في القبة ، وقد لا يستطيع أحد منهم أن ينبئهم بذلك ... والواقع ، أن « يمينة » امرأة نصرانية ، ولكنها كانت زوجة زعيم من زعماء البلاد المحبوبين ، وولي من أوليائها الصالحين ، فلا غرابة في أن ترقد رقادها الأخير في ذلك الضريح العائلي ، وأن يعلو الصليب قبرها ما دامت قد تركت في قلوب الناس أجمعين أثرا طيبا وذكرى خالدة !

من هي « يمينة » أميرة الصحراء ؟

في سنة ١٨٧١ ذاقَت فرنسا مرارة الانكسار وتجذعت كاس الهزيمة والذل حتى الثمالة . فإن الجيوش الألمانية طغت عليها ، ونكلت بجيوشها في الميادين ، ووطأت سناياك الخيول البروسية شوارع باريس ، وفرضت المائتا على عدوتها القديمة شروطا قاسية فارغمتها على قبول الصلح كما أرادته الامبراطور غليوم الاول ووزيره بسمارك .

ورحلت دوائر الحكومة الفرنسية عن عاصمتها باريس ، ولجأت إلى مدينة بوردو ، وجعلت تنتظر هناك ، في مأمن نسبي ، عودة المياه إلى مجاريها ، وجلاء الأعداء عن أرض الوطن .

وغصت مدينة بوردو باللاجئين إليها من كل فج. وصوب . وكان بينهم أفراد أسرة معروفة ، يشغل بعضهم وظائف حكومية رفيعة .

حلت الاسرة في أحد فنادق المدينة ، ومعها فتاة تدعى « أوريلي بيكار » رافقت ربة البيت كوصيفة لها .

وأوريلي بيكار فتاة جميلة ، اغدقت عليها الطبيعة نعمها بلا حساب ، فلا غرابة إذن في أن تلفت تلك الفسادة الحسناء أنظار الناس ، وأن تنفذ سهام الحاطلها الفاتكة إلى أعماق القلوب .

وكان يقيم في بوردو ، في ذلك الوقت ، فريق من زعماء القبائل العربية في الجزائر ، جاءوا إلى فرنسا في أثناء الحرب السبعينية ، حاملين إلى ولاية الأمور تحية قبائلهم وولاء رجالهم ، قائلين : انهم لن يثوروا على فرنسا كما أشيع عنهم ، وأن شمائلهم العربية الموروثة تمنعهم من اغتنام تلك الفرصة الساتحة ، وضرب فرنسا الضعيفة المهزومة من وراء !

وكان بين أولئك الزعماء رجل له عند قومه مكانة سامية وكلمة مسموعة ، تردد اللسنة اسمه باحترام وتدعو له بالخير والعمر الطويل ، من الجزائر إلى تونس ، ومن ساحل البحر إلى أطراف الصحراء .

ذلك الرجل هو « سي أحمد التجاني » سليل أسرة نبيلة ، أنجبت للجزائر أبطالاً وعلماء وأولياء ، وحارب أبناؤها في صفوف الجزائريين من قديم الزمان ، وأبلوا في الميادين بلاءً حسناً . وكان آخر عهدهم بالبطولة والفروسية ، في أثناء المعارك التي خاضوها غمارها بجانب بطل الجزائر الحالد الأمير عبد القادر بن محيي الدين ، ضد الفرنسيين أنفسهم !

حمل سي أحمد التجاني لولاية الأمور في بوردو الطمأنينة التي كانوا منتعشين إليها ، وأقام مدة من الزمن في تلك المدينة الفرنسية ، حيث أحاطه الناس بأنواع الاجلال والاكرام . وشاعت الاقدار أن يقع نظره على الفتاة أوريلي بيكار ، ابنة مقاطعة اللورين الهاربة إلى بوردو مع الهاربين !

وكان الزعيم العربي في عتفوان شبابه ، وسرعان ما خفق قلبه بحب تلك الغادة الهيفاء . فرغب فيها زوجة له . وعزم على اقتلاع ذلك الفصن الرطب من الدوحة الفرنسية . ونقله إلى مقره البعيد . في بطن الصحراء .

كاشف الفتاة بما كان يجول في خاطره وقال لها بلا مواربة ولا رياء :





الفرسان |

اسمعى يا ابنتى • اننى اقيم فى وسط الرمال • فى بقعة بعيدة عن  
المدن ومساكن الناس • تتسلط عليها أشعة الشمس المحرقة • وتهب  
عليها رياح السموم من كل جانب • فلا شيء هناك مما يحيط بك هنا من  
أسباب الراحة والتسلية واللهو والمرح • ولكن الشعب الذى يخضع لى  
شعب شجاع شهم طيب القلب • وقد أحبيتك • فهل ترغبين فى اللحاق  
بى الى هناك حيث تعيشين بين أبناء قومي تحت الخيام التى لا تستفر  
أطنابها فى مكان ؟

فكان الجواب كلمة واحدة •

– نعم !

غادر مى أحمد التيجانى أرض فرنسا ، ومعه زوجته أوريلي بيكار !

وأقيمت في مدينة الجزائر . حفلة غريبة . لم تشهد البلاد مثلها ،  
فقد مثل الزعيم الجزائري مع زوجته الفرنسية أمام « الكردينال دي  
لافيجري » ممثل الكنيسة الكاثوليكية في ذلك القطر العربي . وأقسم  
أحمد التيجاني المسلم التقى الورع أمام الهيكل المسيحي بأن يحتفظ  
بزواجه مدى الحياة . وألا يتخذ لنفسه امرأة سواها !

وأقسمت أوريلي بيكار الفرنسية المسيحية بأن تكون لزوجها العربي  
المسلم طائعة مخلصه . وألا تعصى له أمرا في شأن من الشؤون .

وعرفت أوريلي الجميلة كيف تكتسب القلوب وتتجنب بينها وبين  
أسرة زوجها كل اصطدام وخلاف ، فأحبها الناس وأطلقوا عليها اسم  
« يمينه أميرة الصحراء » .

وكانت المرأة جديرة حقا بذلك اللقب الرفيع .

فقد اخلصت لزوجها اخلاصا لاشائبة فيه . ووضعت مواهبها  
الكثيرة في خدمة القوم الذين التحقت بهم وأصبحت منهم . وعاشت في  
الجزائر نحو خمسين سنة كانت في خلالها مثال الفضيلة والامانة والهمة  
والنشاط .

مات أحمد التيجاني فاتخذها أخوه زوجة له . ولكن الاقدار أبت  
الا أن تحترم المرأة من زوجها الثاني . وكان ذلك قبيل الحرب العظمى .

وفي سنة ١٩١٤ ، غادرت « يمينه أميرة الصحراء » مدينة الجزائر  
حيث كانت تقيم في ذلك الوقت، وانطلقت من جديد الى الصحراء، لدعوة  
القبائل الى الاسراع لنجدة وطنها فرنسا .

فلبت القبائل دعوتها ، وحملت البوارج الفرنسية من سواحل  
الجزائر الى مرسيليا وطولون، كتائب الفرسان الجزائريين الذين التحقوا  
بالجيش الفرنسي اجابة لرغبة الاميرة المحبوبة . وللمرة الثانية ، لم يفر  
الجزائريون بفرنسا ولم يطعنوها من الخلف .

وعندما وضعت الحرب أوزارها كانت أوريلي بيكار أو يمينه . مقيمة  
عند أهلها في مقاطعة اللورين . بعد أن بقيت عشرات السنين بعيدة  
عن وطنها .

ولكن أخبارا مزعجة وردت عليها من الجزائر ، فان وفاة زوجها  
أحمد وأخيه الواحد بعد الآخر أثارت خلافا بين أفراد الأسرة . حول  
اختيار الزعيم الذي يحل محلها .

كانت يمينه قد بلغت الثمانين من العمر ولكنها لم تتردد في الرحيل  
فركبت البحر من جديد عائدة الى الصحراء .  
وما أن وصلت الى الاغواط ، حتى التف حولها أفراد الأسرة ،  
وتعهدوا بقبول الحل الذي تراه الاميرة الجليلة المحبوبة .  
وبعد أن أعادت يمينه الصفاء الى القلوب اغمضت عينيها للمرة  
الاخيرة ، مرتاحة الى النتيجة ، سميحة بما قامت به من أعمال في حياتها  
الطويلة .  
ونقل جثمانها الى ضريح الأسرة ، حيث ترقد ديمينة أميرة الصحراء  
المسيحية الفرنسية ، زوجة أحمد التيجاني المسلم العربي جنبا الى جنب  
مع أفراد الأسرة النبيلة الجليلة .



www.KitaboSunnat.com

## عاشت المغربية

سعت الى تارين من العلو :  
الثار لوطنها ، والثار لاييها ،  
قبلت الهدف الذي سعت  
اليه !



قورت الحكومة الاسبانية اخضاع « الريف المغربى » من ساحله الى أقصى جباله وسهوله، والضرب بيد أراقتها أن تكون من حديد ، على ما بدا هنا وهتالك من حركات عصيان ، وميول الى التحرر من ربة الاستعمار وذل الاحتلال ، بين القبائل والعشائر ، وأهل المدن وسكان القرى والمزارع .

وصدرت الاوامر من مدريد العاصمة ، الى القواد والحكام ، بأن يكونوا تلك اليد الحديدية الضاربة ، وبأن يبطشوا بأولئك العرب السوديين الذين تحدثهم النفس بالانتفاض على سادتهم الاسبان .

وحشد الفاصيون جيشين لجبين ، أحدهما بقيادة الجنرال بيرانجر، عهد اليه فى تطويق المنطقة التى يتزعمها «الريسولى» ومحاولة استمالته بالتعود والاموال ، والثانى بقيادة الجنرال سلفسترو للزحف فى داخل البلاد وتثبيت اقدام الاسبانيين فيها .

وجمع سلفسترو جموع قواته ومن أغرتهم الوعود والهبات الاسبانية من أبناء الريف ، ووقف خطيبا فقال :

« بعد شهر واحد من هذا التاريخ ، سنلتقى مرة أخرى فى القرى المشرفة على البحر، ونشرب معا أقداح الشاى الساخنة، عربون الصداقة والتعاون » واعلموا أن الاسبانيين سيشرّبون تلك الاقداح ، سواء أرضى العرب أن يشربوها معهم أم لا ! وسوف تدين جميع البلاد لنا بالطاعة شتم أم أبيتم ! »

وكان الأمير عبد الكريم الخطايبى فى ذلك الوقت يطوف البوادي والخواصر ، مستنهضا هم الناس ، داعيا مواطنيه الى السلاح لانقاذ الريف من نير ثقيل لا ترضى به أعناق الاحرار الأباة من الرجال فبلغته أقوال القائد الاسبانى المتعجرف ، وأدرك أن ساعة العمل قد دنت !

وانطلق رسله فى جميع الانحاء يحددون للمجاهدين موعدا ومكانا للقاء ، وفى شهر يونيو ١٩٢١ للميلاد الموافقة لسنة ١٣٣٩ للهجرة . بدأت حركات العرب المسلحين تفد من كل حذب وصوب ، الى المواقع التى

اختارها زعيم الثورة الريفية حول المعسكرات الاسبانية في « أنوال »  
وقد أقسم كل من الوافدين على جعل حياته فداء لوطنه ، فاما وثبة الى  
الامام ، نحو الحرية المنشودة واما استشهاد في الميدان بين قرع الطبول  
وصهيل الحثول !

- مرحى ! مرحى ! على بركة الله !

بهذه الكلمات كان عبد الكريم واخوه وعمه وابن عمه ، الذين  
حملوا عبء القيادة في تلك الظروف العصيبة ، يستقبلون القادمين من  
شيوخ وكهول وشبان ، وقد هرعوا خفافا سراعا شجعانا ، تلبية للنداء  
وطلبا للطعن والنزال !

وأبت المرأة المغربية - شأن كل امرأة عربية يوم الكريهة والنزول -  
أن تدع الرجال يستأثرون بالقتال وينفردون في البذل والتضحية ، فوفد  
على معاقل المجاهدين عدد كبير من الحضريات والقرويات والبسويات  
ينشدن المساهمة في حرب التحرير ، ويبشئن خوض المعارك ، مع بعولهن  
واخوتهن وفلذات أكبادهن !

- مرحى ، مرحى ! على بركة الله !

وجاءت بين النساء صبية في الخامسة عشرة من العمر ، بهيمة  
الطلعة ، واسمة العينين ، حادة البصر ، جهورية الصوت ، تبدو الجراءة  
في كل كلمة من كلماتها ، وكل حركة من حركاتها .

وخاطبت عبد الكريم قائلة :

- جئتك يا زعيم القوم في طلب ثارين ، والسعى الى هدفين ..  
عندي سيف وبندقية .. خذ البندقية لاحد رجالك ، فالسيف يكفيني  
ولن اقاتل الا به ... وعندي هذه الحلي ، ورثتها عن أمي رحمها الله ،  
فخذها لبيت المال فبيت المال احوج اليها مني ... وعندي مائة وخمسون  
« دوروس » اقتصدها أبي قبل موته ، فخذها أيضا وضمها الى الحلي في  
بيت المال .. ورجائي الاخير يا عبد الكريم ، ان تترك لي الحرية في طلب  
الثار كيفما شئت وأينما أردت .. فان لي غريبتين : اسبانيا التي تحاول  
اغتصاب وطني ، وضابطا اسبانيا حاول اغتصاب شرفي !

اصفى القائد المغربي بدهشة ممزوجة بالاعجاب والاكبار ، الى  
حديث الفتاة النبيلة ، التي جاءت تفدى الوطن بما ملكت يداها ، فأنى  
على تلك العاطفة المربية السامية ، ورحب بالعصية أجمل ترحيب :





عبدالكريم الخطابي  
يوم قام بثورته سنة ١٩٢١

- لا عدم الريف أمثالك يا ابنتي ! ما اسمك ؟

- عائشة .

- من أين جئت ؟

- من مدينة مليلة . . .

- وابنة من أنت ؟

- ابنة أبي زيان . . .

- أبو زيان ، صاحب الحانوت بجوار الثكنة الاسبانية ؟

- هو بعينه . . .

- هل مات أبوك ؟

- قتلة الاسبان رميا بالرصاص !

- كيف ؟ ولماذا ؟

- دعني أقص عليك ما حدث يا عبدالكريم ، فانت اليوم أولى الناس  
بمعرفة العوامل التي تحملني على طلب النار مرتين ، والسعي الى هدفين

في آن واحد ، كما قلت لك ! لقد أصبحت الآن يتيمة ، لا سند لي ولا معين ، غير الله رب العالمين !

قصت عائشة على عبد الكريم الخطابي قصتها ، وروت له المأساة التي وقعت لها في مدينة مليلة ، حيث كانت تعيش مع أبيها صاحب الحانوت . . .

كان أبو زيان جالسا ذات يوم كعادته ، يبيع مختلف السلع للعرب والاسبان على السواء ، واذا بابنته تدخل عليه ممزقة الثياب ، محلولة الشعر ، خائفة لاهثة . فسألها عن الخبر :

— ابي ، لقد كتمت عنك أمر ذلك الضابط الاسباني الذي يلاحقني ويضايقني ، ولكنني بلغت اليوم آخر حدود الصبر والجلد ، وأخشى أن يلاحقني منه مكروه ! فقد هاجمني ذلك الوقح ، على مسافة يسيرة من الحانوت ، وعلى مقربة من ثكنة الجيش ، ولو لم أقاوم ، ثم أفلت منه مهرولة الى هنا ، لوقع منه ما يلحق بى وبك عارا لا يمحي . ابي ، لنهرب من هنا ! . .

جعل « أبو زيان » يهدئ روع ابنته ، ويلاطفها ، ويبعد الطمأنينة الى نفسها . وعلم منها أن الضابط « كارلوس » الذي يمر بالханوت في ذهابه وأوربه بين الثكنة والمدينة ، هو الرجل الذي تتهمه الفتاة بأنه يحاول الاعتداء عليها ، ويواصل اغراءها واغواءها ، بالوعد حيناً وبالوعيد أحيانا ، وأنه في ذلك اليوم تطاول عليها بجرأة لا يقدم عليها غير رجل يثق بأنه في مأمن من العقاب ، ويبعد عن متناول العدالة !

وكررت الفتاة رجاءها :

— لنهرب يا ابي من هنا ! . فان المغربى أصبح غريبا في وطنه ، وبنات المغرب أصبحن معرضات للاذى في عقر دارهن ، من أولئك العلوج الاجلاف !

لكن أبا زيان طبع على جبين ابنته قبلة حارة ، وأخذ رأسها بين يديه ، وقال وهو يتصنع الهدوء والطمأنينة :

— كلا يا عائشة ! لن نهرب . بل ان ذلك الضابط الاثيم هو الذي سيهرب من البلدة ، الى غير عودة !

وفي اليوم التالي ، قبل شروق الشمس ، كان أبو زيان متربعا للضابط خلف حانوته الصغير ، وقد أمر ابنته بأن تقف متعبدة في طريق

الاسباني . فوقع ما ثمان بالحسبان ، وعاد الرجل شهجه على الفتاة وحاول أن يستدرجها الى الثكنة ، واذا بصاحب الحانوت يثب من مخبئه ويلقى على المعتدى الاثيم درسا قاسيا ، فيشبعه ضربا ، ويفهمه أن للاعراض العربية حماة يدفعون عنها الاذى، وحراسا يحرسونها من عدوان الارذال اللثام .

لكن الضابط الذي تجرأ على فتاة ضعيفة ، جعل يستغيث ويحاول الافلات من قبضة الرجل القوي ، فأسرع لاغائته لفيف من رفاقه، واحاط اولئك الرفاق بالاب وابنته ، وتلقت عائشة على رأسها ضربة شديدة أفقدتها الوعي فسقطت على الارض .

وعندما أفاق من غشوتها ، وجدت نفسها جنباً الى جنب مع أبيها وقد أصبح جثة هامدة ، مزقتها الرصاص وحطمت الاقدام رأسها .

ترك الاسبانيون الضحيتين على التراب ، في بركة من الدماء ، وعادوا من حيث أتو آمنين مطمئنين ضاحكين !

وتجمع العرب حول القتيلى وابنته ، فحملوا الجثة الى الحانوت وراحوا يعزون الفتاة راجين لها الصبر والسلوان !

ورفعت عائشة أمرها الى القيادة الاسبانية فصدت في وجهها الابواب ، وقيل لها : ان الضباط الذين قتلوا أباهم كانوا في حالة الدفاع عن النفس ، وانها على ضلال في اعتقادها أن الاسباني لا يحق له أن يقتل العربي دون أن يتعرض للعقاب !

وأدركت الفتاة أن ثار العربي في بلد يحتله الاجنبى يؤخذ أخذا ، وان حالة الافراد كحالة الشعوب ، فالاجنبى المقتصب لا يعطى الفرد عدلا ولا يمنح الشعب حقا ، وانما كل شيء ينتزع منه انتزاعا : قذية القتيلى وفدية الوطن !

ولهذا ، عولت عائشة المغربية ، ابنة أبى زيان صاحب الحانوت في مليلة على الالتحاق بالمجاهدين في معارلهم ، طلبا للتأرين ثار الأيب الشهيد وثار الوطن المستعبد .

وختمت عائشة حديثها قائلة :

~ هذه قصتى يا عبد الكريم ! فقد حملت معى البندقية والسيف،

الذين كان أبي يخبئهما لليسوم العصيب ، وحملت ما نملك من خي  
وتقود ، وجئتك للجهاد في صفوف المجاهدين ، والاستشهاد في مواكب  
المستشهدين !

في الواحد والعشرين من شهر يوليو سنة ١٩٢١ ، وثب العرب  
وثبتهم الأولى ، وضح القضاة بالتهليل والتكبير ، وصمت الأذان صيحات  
المجاهدين ، المنطلقين على خيولهم ، وليس في أيديهم غير البنادق  
والصوامر ، نحو اعشاش المدافع والرشاشات !

وخلد عبد الكريم الخطابي وأبطاله في سجل التاريخ يوما من أيام  
العرب المجيدة ، هو يوم « أنوال » النير الوضاح !

ففي تلك المعركة الرائعة ، التي ظلت مشتعلة الاوار ثلاثة أيام  
كاملة ، فتسكت حفنة من رجال المغرب ونسائه بعشرين ألف اسباني  
مسلحين ، ذبحوا ذبح الانعام ، فلم يفلت منهم غير عشرات ألقوا السلاح  
وطلبوا النجاة بالهرب من الميدان ، وحاول ثلاثة الاف منهم ، بقيادة  
الجنرال « نافارو » أن ينقذوا الموقف ويمحو العار عن الجيش الاسباني ،  
ولكنهم ارغموا على التسليم فأرسلوا الى معتقلات الاسرى في الجبال !

وفي تلك المعركة ، بين الاسبان المضطربين المنهزمين ، عثرت  
عائشة المغربية بفرمها « كارلوس » الذي حاول أن يسلبها شرفها ،  
والذي كان سببا في موت أبيها ، فصاحت به :

— سيفك يا أنذل الرجال ! فالفتاة المغربية لا تعتدى على اعزل ،  
ولا تقتل من لا سلاح بيده ، يدافع به عن نفسه ! سيفك !

فار فائر الرجل ، لرؤية تلك الصبية الحسناء التي زجرتة واذاقتة  
المهانة في مليلة فوئب عليها والسيف بيده ، واشتبك الاتصال في عراك  
عنيف ، ومزق سيف أبي زيان صدر الضابط الاسباني ، كما مزق من  
قبل رصاص الاسبانيين صدر صاحب الحانوت وهو يدافع عن ابنته !

كانت هزيمة الغاصبين في تلك المعركة منكورة كاملة .

عشرون ألفا قتلوا . وثلاثة آلاف أسروا . فدفعت حكومة اسبانيا  
خمس مائة مليون لافقتادهم وغنم العرب ستين مدفعا ، ومئات من مركبات  
النقل ، وأدوات المواصلات ، وعشرات الآلاف من البنادق ، وما يكفي من  
المؤن والذخائر لمواصلة حرب التحرير !

والثحر القائد العام الجنرال سلفستر فى الميدان ، وهويرى بفيليه  
ثمزق جيشه وذلة بلاده !

وفازت عائشة المشربية بالثارين وبلغت الهدفين !

ومضى عبد الكريم الخطاى من نصر الى نصر ، راجيا أن يحقق الله  
آمال المخرب على يده ، أو على يد غيره من بعده اذا شاء ، فهو وحده العلى  
القدير !

# رسالتى وامرأة

---

ما اكثر الأبطال المجهولين  
فى الشوارع والغروب ، وما  
أجلهم بالاعجاب والتقدير !

أرسل الأمير عبد الكريم الخطابي في طلب رجل من أبطاله المخلصين الأوفياء - وكان جميع رجال عبد الكريم أبطالاً أوفياء مخلصين - واختل به في مركز قيادته ، وأسر اليه قائلاً :

- لقد اخترتك اليوم يا قاسم من بين الرفاق المجاهدين ، لأعهد اليك بمهمة يتوقف عليها فوزنا في هذه المرحلة من حرب التحرير التي خضنا غمارها معتمدين على الله . فنحن الآن في السنة الرابعة من جهادنا، وقد انقسمت جيوشنا الى قسمين : قسم يحارب في هذه الجبهة الشرقية، وقسم يحارب في الجبهة الغربية بقيادة أخي محمد . وهذه رسالة تحوى الكثير من الأسرار ، وتبسط الخطة التي قر الرأي على تنفيذها في الجبهتين معا ، وفي وقت واحد . وأنا في حاجة الى رسول أمين مقدم ، يحمل هذه الوثيقة الى أخي محمد في مركز قيادته بالقرب من شفشاون . فخذها وتوكل على الله . واعلم أن وقوعها في أيدي الأعداء قد يجد علينا الوبال ، ويسبب اراقة دم مغربي تحن به ضنينون، ويفسد علينا خططنا ويؤخر يوم النصر .. اذهب برعاية الله وتوقيقه !

عانق القائد رسوله ، الذي تناول من يده الرسالة المخفية في غلاف من الجلد ، وخبأها في طيات ثوبه ، وقد بلغ به التأثر مبلغه فلم تخرج من فمه غير هذه الكلمات :

- شكراً ١٠٠ ستصل الرسالة ١٠٠ ولن تقع في أيدي الاسبانين مهما تكن المخاطر التي تحف بي !

وانطلق قاسم مشيئاً بنظرات الامير المغربي وتمنياته .

كانت ثورة الريف المغربي ، التي نشبت في شهر مايو سنة ١٩٢١ للميلاد ، الموافقة لسنة ١٩٣٩ للهجرة ، قد تحولت شيئاً فشيئاً الى حرب نظامية حقيقية ، وذلك منذ أن مزق عبد الكريم جيش الاسبان تمزيقاً مروعا في معركة « أنوال » في شهر يوليو من السنة نفسها ، ففي تلك المعركة التي استمرت ثلاثة أيام بلياليها ، كتب الفوز لحقنة من المجاهدين المغاربة على عشرين ألف اسباني ذهبوا من آخرهم ، وثلاثة

آلاف سلموا أنفسهم مفضلين الأسر على الموت ، ولم ينج من ذلك الجيش اللجب غير بضع مئات تسللوا الى مدينة « مليلة » ليذيعوا فيها خبر الكارثة الماحقة . أما قائد الاسبانيين ، الجنرال سلفستر ، فقد انتحر في الميدان حزنا وغیظا !

وكانت أسلاب المعركة كافية لتسليح جيش المجاهدين . فقد غنموا ستين مدفعا ، وعشرات الآلاف من البنادق والرشاشات ، وكميات عظيمة من معدات القتال والنقل والمواصلات والذخائر . ورتب عبدالكريم جيشه منذ ذلك اليوم كتائب من المشاة والفرسان والمدفعية ، وراح ينازل خصومه حينما وجدهم ، بل يطاردهم من موقع الى موقع ، ويتنزع منهم أرض الوطن المغربي رقعة بعد رقعة ، ومدينة بعد أخرى !

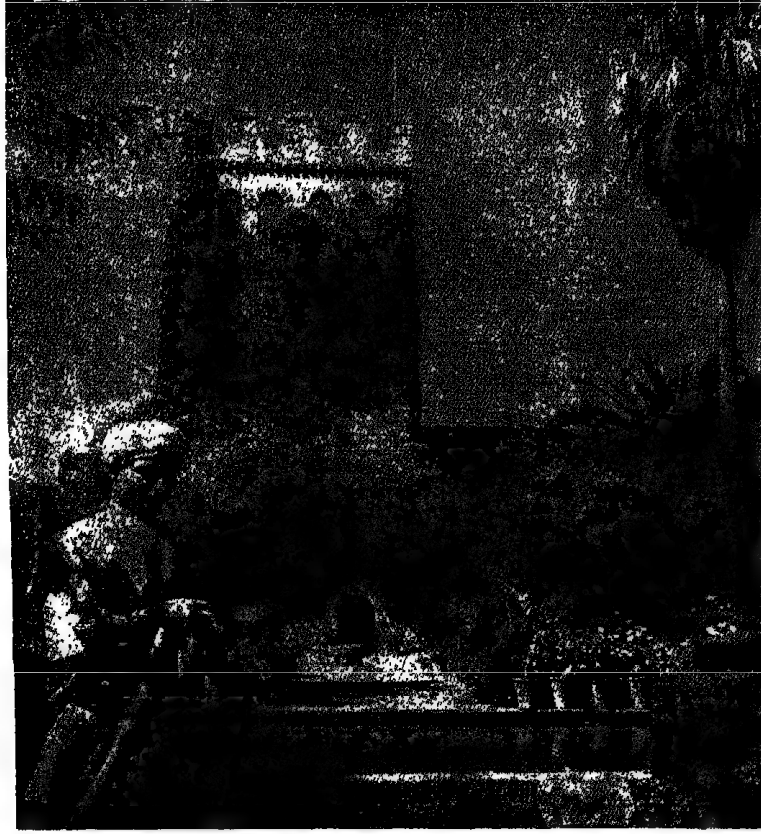
في صيف سنة ١٩٢٤ عول القائد المجاهد على توجيه ضربة قاضية الى العدو ، الذي تلقى المدد من أسبانيا ، وأعد العدة لهجوم مضاد ، على أمل استرجاع ما فقدته الاسبانيون في السنوات الثلاث السابقة . ولهذا ، فقد عمد عبد الكريم الى انشاء جبهتين : جبهة شرقية يقودها بنفسه ، وجبهة غربية عهد بقيادتها الى أخيه وساعده الأيمن ، وقد عرفت المعارك التي اشتبك فيها المغاربة بالاسبانيين في الجبهة الاولى ، طوال الصيف وشطرا من الخريف ، بحرب « سيدى مسعود » وعرفت معارك الجبهة الغربية ، بحرب « شفشاون » أو على طريقة الاختصار في لفظ أسماء البلدان عند المغاربة ، بمعركة « الشاون » .

تأهب كل من القائد العام وأخيه لبدة الهجوم في آن واحد . فكان على الأمير محمد ، في الجبهة الغربية ، أن يستولى على بلدة « شفشاون » ويطرده الاسبانيين نحو الساحل . وعلى الأمير عبد الكريم أن يشدد الحناق على جزء من الجيش الاسباني المطوق في الجبهة الشرقية ، وأن يمنع الجزء الآخر من نجدة الحامية المرابطة في « شفشاون » فيخف الضغط عن أخيه ..

وحمل المخبرون المتنبئون في جميع الانحاء الى عبدالكريم انباء هامة عن حركات الاسبانيين ، وعن الامدادات المغربية المرتقبة ، ورسم الأمير خطته النهائية ، ودون كل ذلك في خطاب عهد الى رسوله « قاسم » بحملة الى أخيه . وعلى مضمون ذلك الخطاب كان يتوقف مصير المعركة القادمة ، أو على الأقل بعض مصيرها .

بينما كان الأمير محمد ذات يوم يتشاور مع أقرب معاونيه في توزيع





في مدينة شفشاون بالريف  
المغربى حيث هزم العرب  
الجيش الاسباني

قواته ، وتعين مهمة كل كتيبة من كتائبه ، اذا برجاله يسوقون اليه  
امرأة بدوية فى حالة يرثى لها من الاعياء ، مهلهلة الثياب فاغرة العينين،  
وقد تجمد الدم على قمها وخديها ، وجميع الدلائل تدل على أنها ولدت  
خرساء أو فقدت النطق على أثر حادث وقع لها ..

الغربية ، وانسحب الاسبانيون من بلدة « شفشان » فدخلتها القوات العربية ، وسط الاهازيج وقرع الطبول ، تخفق فوقها الاعلام ويضجك لها الجو الصافي . وتفهم الاسبانيون الى « تطوان » و « سبتة » و « المرائش » حيث اعتصمت فلولهم مذعورة مرتبكة . وجمع المجاهدون غنائم المعارك وأسلابها ، واستعدوا لوثبة أخرى الى الامام ، لتطويق العدو على طول الساحل والقضاء عليه ...

لكن العدو المرتجف الخائف ، راح يفكر بعد تلك السلسلة من الكوارث في طريقة يتجنب بها الهلاك ، فحاول التخلص من خصمه باغتياله ولكن المؤامرة فشلت . فعمد الى طلب النجدة من دولة أخرى ! فان اسبانيا في مخبتها قررت أن تبسط يدها لجارتها فرنسا، لكي تمدّها بالرجال والعتاد ، فتتعاون دولتان كبيرتان ، تملكان الجيوش والأساطيل والطائرات ، في القضاء على شعب لا يتجاوز عدده مليوناً واحداً ، ولا يطلب غير قسطه من الحياة ، ومكانه تحت الشمس ، ونصيبه من الحرية !

بعد معركة « شفشاون » ، أمضى الأمير محمد الى أخيه الأمير عبد الكريم بما يساوره من دهشة واستغراب ، بشأن المرأة التي حملت اليه الرسالة في مركز قيادته . ولم يكن عبد الكريم قد عرف شيئاً بعد عن رسوله «قاسم» ، فتولاه القلق ، وجعل القائدان الاخوان يستفهمان ويستقصيان الاخبار ، فتمكنّا في النهاية من معرفة حقيقة ما حدث ، أو بعض الحقيقة ..

فقد عثرت فصيلة من الفرسان المغاربة على جثة « قاسم » مشوهة تطرق اليها البلاء ، خلف أكمة وعرة ، على مسافة خمسين كيلومترا من مدينة « شفشاون » . وقال أسير من الاسبانيين : انه وبعض رفاقه قتلوا رجلا عربيا في ذلك المكان . فاستنتج الاميران من ذلك أن امرأة يدوية كانت على مقربة من الاكمة ، فرأت الاسبانيين يطلقون الرصاص على الرجل وأسرعت لنجدته ، وان قاسما سلمها الرسالة وطلب منها أن تحملها الى مقر القيادة فتعمدت له بذلك وتركته ميتا أو مشرفا على الموت، ثم واصلت السير قدامهما الاسبانيون أيضا وأطلقوا الرصاص عليها فاصيبت في عنقها وفمها ، وكانت الاصابة سببا لفقدانها للنطق ، فاصبحت خرساء ولكنها تجلّدت ، وتحملت آلامها ، وواصلت السير

١٩١

اسبانيا المطلق ، الجنرال الدكتور بريمو دي ريفيرا ، أن يتولى قيادة الحرب بنفسه ، فغادر عاصمته مدريد قاصدا الى المغرب ، حيث حشد جيوشا لجة جديدة، كان مصيرها أشد هولا من الجيوش اللجة السابقة . فقد انتصر عبد الكريم في الجبهة الشرقية ، وانتصر محمد في الجبهة

الغربية ، وانسحب الاسبانيون من بلدة « شفشان » فدخلتها القوات العربية ، وسط الاهازيج وقرع الطبول ، تخفق فوقها الاعلام ويضحك لها الجو الصافي . وتقهقر الاسبانيون الى « تطوان » و « سبتة » و « العرائش » حيث اعتصمت فلولهم مدعورة مرتبكة . وجمع المجاهدون غنائم المعارك وآسلابها ، واستعدوا لوثبة أخرى الى الامام ، لتطويق العدو على طول الساحل والقضاء عليه . . .

لكن العدو المرتجف الخائف ، راح يفكر بعد تلك السلسلة من الكوارث في طريقة يتجنب بها الهلاك ، فحاول التخلص من خصمه باغتياله ولكن المؤامرة فشلت . فعمد الى طلب النجدة من دولة أخرى ! فان أسبانيا في محنتها قررت أن تبسط يدها لجارتها فرنسا ، لكي تمدّها بالرجال والعتاد ، فتتعاون دولتان كبيرتان ، تملكان الجيوش والأساطيل والطائرات ، في القضاء على شعب لا يتجاوز عدده مليوناً واحداً ، ولا يطلب غير قسطه من الحياة ، ومكانه تحت الشمس ، ونصيبه من الحرية !

بعد معركة « شفشاون » ، أمضى الأمير محمد الى أخيه الأمير عبد الكريم بما يساوره من دهشة واستغراب ، بشأن المرأة التي حملت اليه الرسالة في مركز قيادته . ولم يكن عبد الكريم قد عرف شيئاً بعد عن رسوله «قاسم» ، فتولاه القلق ، وجعل القائدان الاخوان يستفهمان ويستقصيان الاخبار ، فتمكنوا في النهاية من معرفة حقيقة ما حدث ، أو بعض الحقيقة . .

فقد عثرت فصيلة من الفرسان المغاربة على جثة « قاسم » مشوهة تطرق اليها البلاء ، خلف آكمة وعرة ، على مسافة خمسين كيلومترا من مدينة « شفشاون » . وقال أسير من الاسبانيين : انه وبعض رفاقه قتلوا رجلا عربيا في ذلك المكان . فاستنتج الاميران من ذلك أن امرأة بدوية كانت على مقربة من الاكمة ، فرأت الاسبانيين يطلقون الرصاص على الرجل وأسرعت لنجده ، وان قاسما سلمها الرسالة وطلب منها أن تحملها الى مقر القيادة فتعهدت له بذلك وتركته ميتا أو مشرفا على الموت ، ثم واصلت السير فداهما الاسبانيون أيضا وأطلقوا الرصاص عليها فأصيب في عنقها وفمها ، وكانت الاصابة سببا لفقدانها النطق ، فأصبحت خرساء ولكنها تجللت ، وتحملت آلامها ، وواصلت السير

وسلمت الأمانة الى صاحبها ، ولكنها دفعت حياتها ثمناً لذلك الوفاء  
المغربي ، ولتلك الشهامة العربية !

هذه قصة بطولة امرأة مجهولة ، في حرب الريف المغربي ، وما  
أكثر الأبطال المجهولين في الثورات والحروب ...

لقد وصلت رسالة عبد الكريم الى أخيه بفضـل تلك المرأة التي  
لا يعرف اسمها أحد !

**الدار القومية للطباعة والنشر**

الدراسة العلمية الطبية والصيد

Bibliotheca Alexandrina



0272398